رابطة العالم الإسلامي

المجمع الفقهي الإسلامي

مؤتمر الانحرافات الفكرية بين
حرية التعبير ومحكمات الشريعة

موقف المنافقين من المُحكَمات وكيفية التعامل معهم في العهد النبوي

د. عابد بن محمد السفياني

عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة وأصول الدين
- جامعة نجران -

أبيض

- **المقدمة:**
- **تمهيد في التعريف بالمنافقين وبيان صفاتهم وخطرهم على المجتمع الإسلامي:**
- **الفصل الأول: التعريف بالمحكمات وموقف المنافقين منها:**

المبحث الأول: التعريف بالمحكمات.

المبحث الثاني: موقف المنافقين منها.

- **الفصل الثاني: كيفية التعامل معهم:ـ**

المبحث الأول: حكمهم في الظاهر والفرق بينهم وبين الكفار.

المبحث الثاني: الصبر عليهم والسعي لهدايتهم وكشف شبههم.

المبحث الثالث: كشف خططهم وإبطال مشاريعهم.

أبيض

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصبحه ومن والاه، وبعد:

فإن المنافقين هم الخطر الأكبر الذي كان يهدد المجتمع الإسلامي من داخله، لأنهم يشككون بمحكمات الدين ويعملون على هدمها، وهذا من أخطر الفتن التي تعرض لها المسلمون في العهد النبوي، لأنها فتنة مستمرة لم تنقطع طوال الفترة المدنية، وكان المنافقون يسعون في تفكيك المجتمع الإسلامي من الداخل وتحويل وجهته عن الصراط المستقيم ومن المعلوم أن حماية محكمات الشريعة من كيد المنافقين وكشف خطرهم وبيان السبل الكفيلة لدرء فتنتهم لا يتحقق إلا من خلال منهج شرعي يحدد طريقة التعامل معهم، وقد عمل رسولنا محمد ﷺ على هدايتهم واستصلاحهم بالطرق الشرعية التي تقوم على الحكمة وبعد النظر واتخاذ الوسائل الكفيلة لحماية المجتمع الإسلامي من شرورهم وفتنتهم وتوقعي من هذا البحث أن يجيب على أسئلة مهمة منها:-

لماذا كان هجوم المنافقين على المحكمات وما وسائلهم؟ وما أبرز المحكمات التي توالت عليها هجَماتُ المنافقين؟ وكيف تعامل رسول الله ﷺ وهو وليُّ أمر المسلمين مع هذه المشكلة؟

وكيف كشف القرآن أخطر صفاتهم؟ وكيف بين رجوعها إلى الكفر والإفساد في الأرض؟ وما سبب ذلك أهو عدم قناعتهم بالإسلام؟ أم تحاكمهم إلى غير شريعته؟ أم ولاؤهم لليهود والمشركين وتعاونهم معهم ضد الإسلام أم هو ذلك كله؟ وما مرد ذلك أهو مرض في قلوبهم ، أم ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليه ورسوله؟

إن هذه الأسئلة تحدد المشكلة في البداية وتوجب طلب أسبابها وكيفية علاجها وهناك أسئلة مهمة حول كيفية التعامل معها: من ذلك:-

ما معالم السياسة الشرعية التي عمل بها النبي ﷺ لدرء فتنة المنافقين، وكيف استفاد الصحابة رضوان الله عليهم من التوجيهات القرآنية والنبوية؟ ثم ما أبرز

الفروق بين الكفار والمنافقين؟ وما أثر ذلك في التعامل معهم ؟ وما الأحكام التي اختص بها المنافقون دون الكفار مع أنهم في الكفر سواء؟ وما الوسائل العملية المناسبة لإضعاف حركة المنافقين ودرء شرورهم؟ وكيف أبطل الرسول ﷺ مشاريعهم وقضى عليها؟

وبالجواب عن تلك الأسئلة، نستطيع الكشف عن أبرز ما اشتملت عليه حركة المنافقين في عهد النبوة من مخالفات في محكمات الشريعة، وعن وسائلهم العملية والفكرية لإفساد عقيدة الأمة المسلمة وتقويض وحدتها.

وللجواب عن تلك الأسئلة ومعرفة الطرق المناسبة لمعالجة هذه المشكلة الكبرى في حياة الأمة كان لا بد من دراسة أسباب قوة المجتمع الأول وأثر التزامه بالمحكمات في جميع مجالاته العلمية والعملية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقضائية.

لذلك لابد من بيان أهمية المحكمات عند علماء الشريعة من المفسرين والفقهاء والأصوليين وذلك ببيان معناها وخصائصها وأثرها، ثم نذكر بعد ذلك نماذج من أعمال المنافقين ضد هذه المحكمات في أكثر المجالات التي ذكرناها آنفاً.

ثم نختم هذه البحث ببيان كيفية التعامل مع المنافقين، وبيان الأساليب التي عمل بها الرسول ﷺ لدرء فتنتهم وخطرهم، وكشف خططهم وإبطال مشاريعهم، وقد قسمت العمل إلى قسمين:-

القسم الأول: التعريف بالمحكمات وبيان موقف المنافقين منها

القسم الثاني: كيفية التعامل معهم

ويسبق ذلك تمهيد في التعريف بالمنافقين وذكر صفاتهم وأهدافهم إجمالاً.

وأحمد الله أن يسر لي الكتابة في هذا الموضوع، فما كان من صواب فمن الله وحده وهو الولي وحده وعليه الاعتماد ومنه نستمد التوفيق والسداد وما كان من خطأ، فمن تقصيري وأستغفر الله عز وجل، وآمل ممن يطلع على هذا البحث أن يسدد ويعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد
في التعريف بالمنافقين
وبيان صفاتهم وخطرهم إجمالاً

نذكر هنا تعريف النفاق: وهو في الاصطلاح الشرعي (إظهار الإسلام وإبطال الكفر) وهم اسم لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص وإن كان أصله عند أكثر علماء اللغة مأخوذاً من نافقاء اليربوع من حيث إنه في ظاهره يدخل في حفرة في باطن الأرض ثم يسد بابها بترابه ثم يحفر له مخرجا آخر يخرج منه ويتخلص وقت الحاجة وكذلك المنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر ليخدع المؤمنين بذلك وله مدخل غير مخرجه من حيث كون المنافق يظهر شيئا ويخفي شيئا آخر[1].

وبين الإمام ابن حجر العسقلاني تعريف النفاق في شرح الحديث الذي أخرجه الشيخان «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أئتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» أخرجه الشيخان[2].

حيث قال الحافظ: (والنفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه، و ذُكر عن القرطبي أن المراد بالنفاق في الحديث نفاق العمل، قال: واستدل له بقول عمر لحذيفة: هل تعلم فيَّ شيئا من النفاق؟ فإنه لم يُرد بذلك نفاق الكفر وإنما أراد نفاق العمل).

ومن هنا نعلم أن العلماء قسموا النفاق إلى نوعين: (إلى نفاق أكبر وهو الذي سماه الترمذي نفاق التكذيب، وسموا غيره النفاق الاعتقادي، ونفاق أصغر وهو الذي سماه العلماء بنفاق العمل)[3].

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم ص ١٥-١٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (فتح الباري ١/ ٨٩) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب خصال المنافق (ص ٧٨)

(٣) فتح الباري ج ١ ص ٨٩- ٩٠.

والمقصود في هذا البحث عند الحديث عن صفات المنافقين النفاق الأكبر.

وأما صفاتهم فنذكرها إجمالاً وهي:-

١- ادعاء الإيمان كذبا وخداعا لأهل الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٨).

٢- التحاكم إلى غير شريعة الإسلام اتباعا لأهوائهم وتحقيقا لرغباتهم، والدليل ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)**﴾ (النساء).

وقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ (٥٠)**﴾ (النور).

٣- التشكيك في الوحي والسخرية بالقرآن والدليل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٤).

٤- الطعن في الصحابة رضي الله عنهم والسخرية بهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٧٩).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال: رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً، ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء، وقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ونزل القرآن. قال عبد الله فأنا رأيته متعلقا بِحِقبِ[1] ناقةِ رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول يارسول الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ورسول الله يقول: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ فنزلت الآية ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ (التوبة)[2].

٥- موالاة الكفار وتقوية عزائمهم، قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ (النساء).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر: ١١).

---

(١) (الحقب) حبل يشد به الرحل في بطن البعير مما يلي ذيله.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٩١٢) وقال العلامة أحمد شاكر إسناده صحيح، أسباب النزول للوادعي ص٢٢.

٦- بغض المؤمنين ومعاداتهم: والدليل قول النبي ﷺ (آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)[1] وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (آل عمران: ١١٨).

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾ (النساء: ١٤١).

٧- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (التوبة: ٦٧).

٨- محبة نشر الفاحشة بين المؤمنين: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (النور: ١٩).

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (النور: ١١).

٩- محاربة المؤمنين اقتصادياً قال تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ (المنافقون: ٧)

١٠- يحاربون الإسلام عن طريق التسمي به والإيمان به قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٨).

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري،كتاب الإيمان باب / علامة الإيمان حب الأنصار.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١)، والمسارعة في الكفر هي ما يقوم به المنافقون من نصرة الكفار على المسلمين.

١١- ليس لهم مبادئ ولا يهمهم إلا مصالحهم الدنيوية، ولا يتورعون عن إلحاق الضرر بغيرهم مهما كان الضرر ويظنون بالله ظن الجاهلية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وهذه الصفات تدل على حقيقة النفاق والمنافقين، حيث إنهم (يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر محاولين بذلك أن يخدعوا الله والذين آمنوا حتى يتمتعوا بما يتمتع به المسلم من عصمة الدم والمال، والحصول على المنافع المادية والمعنوية التي يحصل عليها المسلم، وليتمكنوا من الكيد للمسلمين في الخفاء، وإلحاق الضرر بهم وهم آمنون من نقمتهم بهم لكنهم إن استطاعوا أن يحصلوا على تلك المقاصد الدنيئة أو بعضها فإنهم قد خسروا ما هو أكبر من ذلك حيث خسروا سعادة الدنيا والآخرة، خسروا سعادة الدنيا لأنهم عاشوا في قلق نفسي ورعب دائم وقد كانوا يتوقعون في كل يوم أن ينكشف أمرهم ويبطش بهم المؤمنون، وخسروا سعادة

الآخرة لأن الله تعالى قد أعد لهم العذاب الأليم في الدرك الأسفل من النار وهذه هي الخسارة الكبرى التي لا تعدلها خسارة)[1].

ويؤكد ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية «لم يكن في المهاجرين نفاق لأن من أظهر الإسلام في مكة أوذي في دنياه، والمنافق يظهر الإسلام لمصلحة دنياه»[2] وقال المنافق ليس بمؤمن، وقد ضل من سماه مؤمناً وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه كاليهود وغيرهم، سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط، ولا دخلوا في شيء من أحكام الإيمان، بخلاف المنافق فإنه يدخل في أحكام الإيمان الظاهرة في الدنيا[3].

وهذه الصفات[4] لا تزال موجودة مستمرة يراها المسلمون الصادقون في هذا العالم المعاصر وفي شتى المجالات، وأعمال المنافقين وتخطيطاتهم ضد المسلمين تدل عليهم وكذلك تشكيكهم في الإسلام وشريعته وإفسادهم لعقائد المسلمين ومجتمعاتهم ظاهرة جلية، ولكن بعض الوعاظ والمتفقّهة اشتبه عليهم نطقهم بالشهادتين وإظهارهم الإسلام، قال شيخ الإسلام (وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام فإن كثيرا من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق، وأعرضوا عن حكم المنافقين، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة والنفاق شعب كثيرة)[5] كما يقول الشيخ حبنكة الميداني تسيطر على بعض الوعاظ والمتفقه شبهة مفادها أن النفاق قد انتهى بنهاية عصر الرسالة، وقد أجاب فضيلته عن هذه الشبهة وأطال في الجواب ونختصر هنا جوابه.

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم أ. د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، دار كنوز اشبيلية للنشر والتوزيع ص ٤٠- ٤١.
(٢) مجموع الفتاوى ج ٢٣ ص٦٣.
(٣) كتاب الإيمان لابن تيمية ١١٦.
(٤) انظر في مجمل صفات المنافقين كتاب (المنافقون في القرآن الكريم) ص ٦٠٩ وما بعدها، وكتاب كيف عاملهم للشيخ / محمد المنجد ص ٦٩٤.
(٥) الإيمان لابن تيمية ١٦٨، مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٢.

يقول – رحمه الله –: والصواب أن النفاق باق مستمر لا ينقطع وفي جميع المجالات، ومن ذلك المجال السياسي: حيث بين أن الاستعمار لم يدخل إلى العالم الإسلامي إلا عن طريق المنافقين، وهذا شبيه بمعاونة المنافقين للصليبيين على احتلال بلاد المسلمين وكذلك معاونة المنافقين للتتار لإسقاط الخلافة العباسية[1] وكذلك في المجال العقدي لم ينشيء الحركات الهدامة ولم يدخل المذاهب الفكرية المعاصرة كالشيوعية والعلمانية والإلحاد وغيرها إلى العالم الإسلامي إلا المنافقون من أبناء المسلمين.

وفي المجال العلمي:- نافق أحبار من اليهود وقَسَس ورهبان وأظهروا الإسلام ثم أدخلوا إلى المجتمع الإسلامي أفكارا منحرفة وضلالات وبدعا وخرافات، وأسسوا العقائد الباطلة والفرق الباطنية ونشروا الوثنية وهم يتكلمون باسم الإسلام، ومن أدلة ذلك نشرهم لفكرة (الحلول والاتحاد) ونشر العقائد النصرانية وتأليه البشر ومن ذلك فكرة تأليه علي بن أبي طالب – ﷺ – وتأليه من بعده من سلالته وكل ذلك مكايد يهودية دسها المنافقون وعلى رأسهم (عبد الله بن سبأ).

ودخل في الإسلام من المجوس منافقون فأدخلوا مفهومات منحرفة لبعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ما أنزل الله بها من سلطان.

كما فصل فضيلته الأدلة على دخول المنافقين في جميع المجالات الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، ثم ذكر الأدلة على بقاء النفاق واشتداد خطره، فقد روى ابن أبي شيبة عن حذيفة قال (المنافقون الذين فيكم اليوم، شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله، إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم وإنَّ هؤلاء أعلنوه)[2].

وعن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان قال: (إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ)[3] ، وقال عمر – ﷺ – (ثلاث يهدمن الدين: زلة العالِم،

(١) كتاب (ظاهرة النفاق للشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني) (ص ١٦ وما بعدها).
(٢) مسند البزار ٢٩٠٠.
(٣) فتح الباري مع صحيح البخاري (١٣/ ٧٤).

وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلُّون)[1] وقال الحسن (إن المنافق أعطى النَّاس لسانَه، ومنَعَ اللهَ قلبَهُ وعَمَلَهُ، يا سبحان الله!: ما لقيتْ هذه الأمة مِنْ: منافق قهرها واستأثر عليها، ومارق مرق من الدين فخرج عليها: صنفان خبيثان قد غمّا كل مسلم)[2].

وقال الحسن أيضا: (إن القوم، لما رأوا هذا النفاق يغولُ الإيمان لم يكن لهم همّ غير النفاق) ومعنى يغول: (أي أخذه من حيث لم يدرِ من قولك غاله واغتاله[3]، وقال بلال ابن سعد – رحمه الله –)، (المنافق يقول بما يُعرف ويعمل بما يُنكر)[4].

(١) أخرجه الدارمي ج ١ ص٧١ وابن عبد البر في الجامع، وهو صحيح عن عمر – ﷺ – انظر الصحيح المختار في ما ورد في النفاق والمنافقين من الآثار ص ١٠٦ للأستاذ عصام بن مرعي دار البيان الحديثة.

(٢) جزء من أثر صحيح عن الحسن انظر المرجع السابق ١١٠.

(٣) المرجع السابق ١١٠.

(٤) المرجع السابق ١١٣، وهذه الآثار تدل على حذر السلف رضوان الله عليهم من كيد المنافقين والتحذير منهم في العصور التي بعد عصر النبي ﷺ.

الفصل الأول
التعريف بالمحكمات وموقف المنافقين منها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالمحكمات وبيان أنها العاصمة من فتن المنافقين

المبحث الثاني: موقف المنافقين من المحكمات.

أبيض

المبحث الأول
التعريف بالمحكمات
وبيان أنها العاصمة من فتن المنافقين

تعريف المحكم في اللغة:

جاء في لسان العرب «أحكمت الشيء فاستحكم صار حكما واحتكم الأمر واستحكم وثق» وحكم الشيء وأحكمه، كلاهما: منعه من الفساد،... ومنه حكمة الدابة، سميت بهذا المعنى لأنها ترد الدابة.

وقال: «والمحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، يقال أحكم فهو محكم[1]

وجاء في الصحاح للجوهري: أحكمت الشيء فاستحكم أي صار محكما»[2].

وجاء في القاموس المحيط: بناء محكم أي ثابت يبعد انهدامه، ونقول: أحكمت الشيء أحكمه إحكاما فهو محكم إذا أتقنته فكان في غاية ما ينبغي من الحكمة.

وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد.

قال الجصاص: «المحكم ما لا يحمل إلا وجها واحدا»[3].

جاء في كتب الحنفية هو اللفظ الذي دل على معناه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلا ولا تخصيصا ولا نسخاً في حياة النبي ﷺ و بعد وفاته بالأولى[4].

وفي كتب المالكية قال الشاطبي: في شرح قول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي**

---

(١) لسان العرب دار إحياء التراث العربي مادة حكم (٣ / ٧٧٠- ٧٧٢)، انظر تهذيب اللغة للأزهري مادة حكم (٤/ ١١١).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مادة حكم (٥ / ١٩٠٢).

(٣) أصول الجصاص (١/ ٣٧٣)، وانظر أصول السرخسي (١ / ١٦٥)، وكشف الأسرار (١ / ٥١).

(٤) تفسير النصوص (١ / ١٧١).

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) فجعل المحكم هو واضح المعنى الذي لا إشكال فيه ولا اشتباه هو الأم والأصل المرجوع إليه[١] كما أشار الشاطبي إلى أن الأم هو الأكثر ومعظم الكتاب ولهذا جاء التعبير القرآني للمتشابهات بأنها «أخر» على سبيل التقليل[٢].

وفي كتب الشافعية أن ما لم يحتج إلى بيان فهو المحكم، وهو قول إمام الحرمين في البرهان قال: «والمختار عندنا أن المحكم كل ما علم معناه وأدرك فحواه والمتشابه هو المجمل»[٣].

أما الحنابلة فقد ذكر أبو يعلى: أن آية آل عمران جعلت المحكم هو الأم. فقال «وأم الشيء هو الأصل الذي لم يتقدمه غيره، فاقتضى ذلك أن المحكم: ما كان أصلا بنفسه مستغنيا عن غيره لا يحتاج إلى بيان لا من لفظ قرينه ولا غيره»[٤].

وقال: وأما المحكم: فقد يُعَبر به عما لم ينسخ، فيقال: هذا محكم وهذا منسوخ، وحد ذلك ما بقي حكمه أو تأبد حكمه.

وقد يعبر به عن المفسر، كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** (آل عمران: ٧)، وأُريد بالمحكمات المفسرة المستغنية في معرفة معانيها عما يفسرها، وحد ذلك ما ذكرته وهو ما ينبئ عن المراد نفسه أو يعقل معناه من لفظه[٥].

---

(١) الموافقات (٤ / ١٧٦) .

(٢) هذا المعنى جاء في النهاية، والصحاح ونبه عليه إمام السنة الإمام البغوي كما سيأتي معنا.

(٣) البرهان للجويني (١ / ٢٨٤) شرح اللمع تحقيق د. العميري (٢ / ١٦٨).

(٤) العدة (٢ / ٦٨٧ - ٦٨٨).

(٥) العدة (٢ / ٦٨٥)، وانظر مجموع الفتاوى (١٣ / ٢٧٥).

وقال: «ظاهر كلام أحمد - رحمه الله -: أن «المحكم» ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابه ما احتاج إلى بيان واستدل على ذلك بقول الإمام أحمد: «بيان ما ضلت فيه الزنادقة في القرآن ثم ذكر آيات تحتاج إلى بيان»[1].

وقال في رواية ابن إبراهيم[2] «المحكم» الذي ليس فيه اختلاف[3].

قال القاضي: ومعناه: أنه مستقل بنفسه. ثم قال: وهو قول عامة الفقهاء.

ومن أقوال الأصوليين في تفسير المحكم يظهر لنا أنهم يلاحظون في تعريفات المحكم الأوصاف التالية:

١- الحفظ وعدم التغيير والتبديل.

٢- الوضوح والبيان.

٣- كونها أصلا ومرجعا.

وعلى هذا يمكنُنا أن نعرف المحكم بأنه:

«ما كان أصلا بنفسه مستغنيا عن غيره لا يحتاج إلى بيان».

وسنذكر نماذج للمحكمات التي تكون هي المرجع والأصل عند الاشتباه وذلك على سبيل المثال لا الحصر وبذلك نبين معنى المحكمات عن طريق المثال، وهو أسلوب في التعريفات يسهل إدراك المعنى ويحدده، ويمكن للقارئ التأمل فيما سنذكره من أمثلة ويستطيع أن يطبق عليها أوصاف المحكمات، وهي الوضوح والبيان، وكونها أصلا ومرجعا، وكونها ثابتة محفوظة، وهي أساس الكتاب ومعظمه، وهذا عرض لهذه الأمثلة وهي:

---

(١) العدة في أصول الفقه (٢ / ٦٨٤)، وذكر القاضي أن كلام الإمام أحمد في كتاب السنة، وقال المباركي في تحقيقه لكتاب العدة: إن كلام الإمام ورد في رسالة «الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكو فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله» ص٧ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٣ هـ وانظر المسودة في أصول الفقه (١٤٤)، والبحر المحيط (١/ ٤٥١).

(٢) قال المباركي: يطلق على أكثر من واحد من أصحاب الإمام فلا يمكن تعيينه، المرجع: العمدة في أصول الفقه (٢/ ٦٨٥).

(٣) العدة (٢ / ٦٨٥) وانظر مجموع الفتاوى (١٣ / ٢٧٥)، الإتقان للسيوطي (٤١٣)، البرهان في علوم القرآن (٦٨).

- وجوب عبادة الله وحده وتوحيده وتفرده بالربوبية والأسماء والصفات والعبادة.

- تحريم الشرك، وهذا معنى الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

- وجوب الإيمان بأركان ومنها الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب، وبالملائكة، وبالرسل جميعا والقدر خيره وشره، ومن أركان الإسلام، وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهذا هو الدين الحق الذي سماه الله الإسلام ولهذا اجتمعت على ما ذكرنا من هذه المحكمات الرسالات السماوية فالدين الذي جاءت به من عند الله واحد وله اسم واحد وهو الإسلام وأتباعه هم المسلمون ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (آل عمران: ١٩) وقال تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الحج: ٧٨).

- ومن المحكمات التي يجب بيانها في هذا العصر بيان عقيدة المسلمين في ختم النبوة وانقطاع الوحي بموت النبي محمد ﷺ وصحة الشريعة وكمالها ووجوب الاتباع له عليه الصلاة والسلام، والأنبياء أخوة لعلات ومحمد عليه الصلاة والسلام رسول للناس كافة ومجدد للرسالات السماوية ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (آل عمران: ١٩).

- الأمر بالأخلاق الفاضلة والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.

- حفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل.

هذه أمثلة للمحكمات وليس للحصر وسيأتي عرض الأدلة التفصيلية عليها كما جاء في القرآن الكريم الذي تضمن بيانا شافيا مكررا في مواضع كثيرة عن الأسس المشتركة بين رسالات الأنبياء عليهم السلام، وقد سماها ابن كثير - رحمه الله - «المشترك عند الأنبياء»[1].

ومن المناسب أن نقتبس بعض هذه المواضيع من القرآن، لنكشف للقارئ عن اهتمام القرآن الكريم ببيان المنهج والعناية به، كما جاء في قصص الأنبياء

(١) وهي كذلك تسمية شيخ الإسلام، انظر تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٨)، الفتاوى (١٩/ ١٠٦-١٢٨).

- عليهم السلام - في آيات كثيرة وسور مستقلة حيث حفظ القرآن الكريم هذه العقائد والأصول، وأكد على أنها هدى الأنبياء قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**﴾ (الشورى: ١٣).

وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات[1]، أمهاتهم شتى ودينهم واح»[2].

يجب الإيمان بهم جميعا والكفر بواحد منهم كفر بهم جميعا، ودينهم الإسلام والاتباع للرسالة الخاتمة التي جاء بها رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام ومن لم يتبعه ويؤمن بهم جميعا فليس بمؤمن، ومن بركة هذه الرسالة المحمدية أنها أكدت على [الدين المشترك] عند الأنبياء عليهم السلام كما سماه شيخ الإسلام - رحمه الله - وسماه القرآن «المحكما»، فالدين المشترك بينهم هو الإسلام، واتباعهم إنّما هو للوحي المنزل من عند الله، فهو المصدر الوحيد الذي تعرف منه الأحكام والشرائع وليس لهم مصدر سواه.

وقد اجتمعت الرسالات السماوية على المحافظة على الضروريات الخمس وهي: حفظ الدين والنفس والعقل، والنسل، والمال[3]، ويدل على ذلك أن الدين المشترك عند الأنبياء عليهم السلام يشمل الأمور التالية:

١- الإستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله وما عناه الله بقوله ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (آل عمران: ١٩) وقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (آل عمران: ٨٥) ويبنى على هذا تحديد مرجعية الشريعة الإسلامية مرجعا وحيدا للتشريع والدستور.

---

(١) أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح في أحاديث الأنبياء (٦/ ٤٧٨).

(٣) الموافقات (٢/ ١٩).

٢- الإيمان باليوم الآخر والاستعداد للجزاء والحساب قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

٣- الأمر بإقامة أركان الإسلام بعد الشهادة بالتوحيد والرسالة مثل الصلاة والصيام. قال لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه: قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، وقال الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام وقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠)، وقال على لسان عيسى عليه السلام وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١)، وقال سبحانه مبينا مهمة المؤمنين قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)، كذلك الحكم بالنسبة للصيام: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

٤- حفظ مقاصد الشريعة التي تتحقق بها مصالحهم الدنيوية والأخروية والنهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وقتل النفس، والزنى والربا وسائر أنواع الظلم والاعتداء. قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: ٣٣)، ومما يدل على حفظ النفس قوله سبحانه قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقوله عن شريعة من قبلنا: قال تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (المائدة: ٤٥)، وكذلك في حفظ المال وتحريم الربا قال الله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقال عن شريعة من قبلنا قال تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا**﴾ (النساء: ١٦٠)، وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن كافة شرائع الأنبياء عليهم السلام تأمر بحفظ تلك الضروريات، وهي قاعدة عظيمة لحفظ حقوق الأفراد والمجتمعات العامة والخاصة، وقد جاء كل رسول داعيا للتوحيد ناهيا عن الشرك محافظا على مكارم الأخلاق [1] وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام تمم تلك المكارم كما قال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[2].

---

(١) فإن قيل: هناك اختلاف في الفروع في شرائع الأنبياء يدل عليه قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)، فالجواب أن ذلك لا يضر لأنه خلاف في جزء وليس خلافا في الكليات والضروريات والمحكمات والأسس.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١١٨)، وانظر السلسلة الصحيحة حديث رقم (٤٥).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

سبق أن ذكرنا معنى المحكم في اللغة ووجدناه يشتمل على هذه المعاني وهي: قول محكم سليم من الاضطراب والتناقص وبناء محكم، ونحن بحاجة إلى بناء مجتمع إسلامي مبني على أساس محكم وقول واعتقاد محكم والمعنى الاصطلاحي المستنبط من التعريفات السابقة هو أن المحكمات هي أساس الشريعة ومعظمها وعليها تقوم أركان المجتمع في مجالاته العلمية والعملية وبها تتحقق ضروراته ومصالحه وبهذا تكون العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي وثيقة جدا، فالمحكمات تؤسس المجتمع على بناء وثيق وتسيره على صراط مستقيم وهذا هو مقصود الشرائع الإسلامية في دعوات الأنبياء عليهم السلام كما بينا، فدينهم الإسلام، وسماهم الله المسلمين وأمرهم ببناء مجتمعاتهم على تلك المحكمات.

وهكذا بُني المجتمع الإسلامي الأول في عهد النبوة واجتمع أهل الإسلام فيه على المحكمات فبَنوا مجتمعهم على أساس وثيق، واعتصموا بالله جميعا بالصراط المستقيم، فأبى المنافقون الالتزام بهذا الحق، والاعتصام بهذا الصراط، فكفروا بعد إيمانهم، وعارضوا المحكمات، وأخذوا في التشكيك فيها وإبعاد المجتمع، عن التحاكم إلى الشريعة، ودخلوا في ولاءات مع أعداء الإسلام، وطعنوا في المؤسسين لهذا المجتمع وشككوا في دينهم وصدقهم، وسيأتي معنا في هذا البحث تحديد أبرز المحكمات التي عمل المنافقون على نقضها والتشكيك فيها، وذلك لعلمهم أن إزالة الثقة بهذه المحكمات هو الطريق إلى انحراف المجتمع الإسلامي وضرب وحدته من الداخل.

الأصل في تحديد معنى المحكمات:

الأصل في تحديد معنى المحكمات هو النص القرآني كما في سورة آل عمران وقد فسره ابن عباس رضي الله عنهما لما سئل عنها في قوله تعالى خطابا لنبيه ﷺ ولأمته قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ**

﴿الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧)، فقال (المحكمات هي الثلاث الآيات من هاهنا قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، والتي في بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1] (الإسراء: ٢٣)، وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، قال الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات)[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[3] (الإسراء: ٢٣).

موضوعات المحكمات الواردة في الآيات التي جاءت في اختيار ابن عباس رضي الله عنهما:

١- وجوب عبادة الله وحده وتحريم الإشراك به

٢- وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما.

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٧٢)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/ ٣١٦) تحقيق عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، قال في التلخيص صحيح، فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨١).

(٣) جامع البيان (٣/ ١٧٢)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٥).

٣- وجوب حفظ النفس وتحريم قتلها بغير حق.
٤- تحريم سائر الفواحش ومنها الزنا.
٥- وجوب حفظ المال وأداء الحقوق.
٦- وجوب الوفاء بالعهد.
٧- وجوب العدل في الإنفاق والوزن بالقسط
٨- وجوب حفظ السمع والبصر والفؤاد.
٩- تحريم الكبر والأخلاق الفاسدة.
١٠- وجوب اتباع الصراط المستقيم
١١- تحريم اتباع السبل المضلة

ويلاحظ القارئ أن هذه الأحكام مجمع عليها عند علماء الإسلام في الصدر الأول من لدن الصحابة رضي الله عنهم، كما أن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما مجمع عليه، وهذه الأصول المحكمات الواردة في الآيات قد انتشرت في القرآن والسنة في مواضع لا تحصى، وهي المبادئ العليا للإسلام، ويدخل فيها أركانه وأصوله وأخلاقه العظام، كما أنها قواعد الشريعة الإسلامية وأساسيات العقائد والأحكام، وهذا معظم الكتاب، وسيأتي معنا إيراد كلام أئمة التفسير بأن المحكمات هن أم الكتاب أي معظمه

وإذا تتبعنا الآيات التي أشار إليها الصحابي الجليل تأكد لنا ذلك فقد ورد في ختامها وجوب اتباع الصراط المستقيم وتحريم اتباع السبل المضلة وهو ما بينه الفقهاء من وجوب الحكم والتحاكم إلى الشريعة الإسلامية كما في كتاب القضاء وكذا تحريم اتباع السبل المضلة وذلك بتحريم الابتداع وجميع الطرق المؤدية إليه وهذا الأصل اعتمده علماء التفسير وبنوا عليه في شرح آية آل عمران قال الله تعالى مخاطبا نبيه وأمته ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

قال ابن كثير – رحمه الله – مؤكدا هذا المعنى: ويخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس، ولهذا قال الله تعالى: **﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه **﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾** أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد)[1].

وعن ابن عباس أيضا أنه قال: [المحكمات] في قوله تعالى: **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** (الأنعام: ١٥١)، وفي قوله تعالى **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾** (الإسراء: ٢٣)، إلى ثلاثة آيات بعدها، ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد ابن جبير **﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** (آل عمران: ٧)، يقول أصل الكتاب وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب وقال مقاتل بن حيان: (لأنه ليس من أهل دينٍ إلا يرضى بهن..) وقال محمد بن يسار – رحمه الله – **﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** (آل عمران: ٧)، قال: (فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليهن) ولذا قال محمد بن جعفر بن الزبير قال: والمتشابهات في الصدق لها تصريف وتحريف وتأويل ابتلى

---

(١) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير دار الهداية للنشر (٣٠١-٣٠٢)، انظر جامع البيان لابن جرير (٣/ ١٧٤)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ١٠).

الله بهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل، فلا يحرفن عن الحق ولهذا قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿**فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ**﴾ (آل عمران: ٧)، أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها باحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿**ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**﴾ (آل عمران: ٧)، أي الإضلال لأتباعهم إياهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى لأن القرآن نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ (الزخرف: ٥٩)، وبقوله ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٥٩)، وغير ذلك من الآيات المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت (قرأ رسول الله ﷺ ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، فقال: (فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم) أخرجه البخاري ومسلم[1]، وأما قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، [الجميع من المحكم والمتشابه حق

(١) روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه.

وصدق] وكل واحد منها يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (**النساء: ٨٢**)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، أي إنما يفهم ويعقل وليتدبر لمعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة[١].

ومن معاني ﴿**أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ أي معظمه، قال الإمام البغوي في شرح السنة: قوله سبحانه وتعالى: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ أي معظمه يقال لمعظم الطريق أم الطريق[٢] ومنه قوله عز وجل: ﴿**حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**﴾ (القصص: ٥٩)، أي في معظمها[٣].

وقال الإمام الشاطبي – رحمه الله – مبينا أن من لزم المحكمات ورد ما اشتبه عليه إليها فإنه يسلم من الانحراف، ويحافظ على مقاصد الشريعة لأنه اتبع الشريعة وحافظ عليها في الاعتقاديات والعمليات.

وذلك بناء على أن الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا على الأصول الاعتقادية العملية، وحافظوا على مجتمعهم بإقامتها وهي المحكمات التي هي أساس الشريعة وهي تشمل الأمور الاعتقادية والعملية، وقد أحسن الإمام الشاطبي في الاستدلال بحديث الطائفة الناجية وقوله عليه الصلاة والسلام في وصفها لما سئل عن صفاتها قال: (ما أنا عليه وأصحابي)[٤]، وأما المنافقون المخالفون لهم فقد عملوا على هدم القواعد الشرعية قال الشاطبي: (فإن المخالف لهم في أصل من أصول الشريعة العملية لا يقصر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية)[٥].

---

(١) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير دار الهداية للنشر (ص ٣٠٢- ٣٠٤).
(٢) النهاية (٢/ ٢٤٢) الصحاح (٦/ ٢٢٣٦).
(٣) شرح السنة (١/ ١٩١).
(٤) أخرجه الترمذي (ح ٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو العاص، وهو حديث حسن.
(٥) الموافقات ٤/ ١٧٧-١٧٨).

وخلاصة القول أن الأمثلة التي اختارها ابن عباس - ﷺ - تمثل أساس الشريعة ومحكماتها، وتحفظ الضروريات الخمس، ولم تقتصر على الأصول العقدية، بل شملت الأصول العملية، كما أنها هي العاصم للمجتمع الإسلامي بحيث تكون حافظة للضروريات الخمس، وعليها مدار تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية للمكلفين في جميع العصور.

وعليها انعقد إجماع الأمة في كل عصر، وعليها بني الفقه الإسلامي وعليها قامت شرائع الإسلام عند جميع الأنبياء - عليهم السلام - ولم تختلف فيها كما سيأتي بيانه وتحريره. فكل من عمل على خلافها وشكك فيها فقد عارض الشريعة وسعى في هدم مقاصدها وضرورياتها.

قال ابن جرير الطبري المفسر الفقيه - رحمه الله -: (وأما قوله: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾ فإنه يعني بالآيات آيات القرآن وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام ووعد وعيد، وثواب وعقاب ،وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر، وما أشبه ذلك ثم وصف الله جل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض، والحدود، وسائر ما بالخلق إليه حاجة من أمر دينهم وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم، وإنما سماهن ﴿**أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ لأنهن معظم الكتاب ومَوضِعُ مفزع أهله عند الحاجة وكذلك تفعل العرب: تسمي الجامع معظم الشيء أُماً له، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم)[1].

وقال النحاس: «أجمع هذه الأقوال: أن المحكم ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره»[2].

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٧٠) وانظر كونها معظم الكتاب شرح السنة.

(٢) معاني القرآن الكريم للنحاس (١/ ٣٤٦).

قال القرطبي: «ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية وهو الجاري على وضع اللسان وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام الإتقان ولا شك أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد»[1].

قال ابن عطية: «والمحكمات المفصلات المبينات الثابتات الأحكام»[2].

وقال ابن كيسان (إحكامها بيانها وإيضاحها، وقد يكون إيجابها وإلزامها، وقد يكون أنها لا تحتمل إلا معاني ألفاظها، ولا يضل أحد في تأويلها)[3].

وقال ابن كثير معنى المحكمات أي البينات الواضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد[4].

قال القرطبي (فالمحكم أبدا أصل ترد إليه الفروع)[5].

وهذه المحكمات التي بين أهميتها علماء التفسير هي التي ترفع عن المكلف ما اشتبه عليه، إما بسبب قصور فهمه وإما بسبب شبهة يدخها عليه غيره، وفي كلا الحالين يحمله ذلك التقصير وتلك الشبهة على مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فالمخرج له من ذلك أن يعتصم بطاعة الله ورسوله ﷺ، وأن يدفع ما ورد عليه من الاشتباه بالاعتصام بتلك المحكمات، فيسلم حينئذ من الافتتان بالشبه ويثبت على الطاعة ولا يزيغ قلبه عنها ولهذا أجمع المنافقون على نشر الفتن من الزيغ في المجتمع الإسلامي من أجل التشكيك في المحكمات وهدم المجتمع من داخله، والفتنة كما ورد تفسيرها هي الشرك، ويدخل فيها جميع الأهواء[6] قال تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤١٣).
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق أحمد صادق (٢/ ٣٣٣).
(٣) معاني القرين الكريم للنحاس)(١/ ٣٤٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٥٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٠).
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٢٧)، وتفسير ابن عطية (٢/ ٣٣٨)، وانظر رسالة الفتنة وموقف المسلم منها (٢٩-٣٠).

(النور: ٦٣)، قال ابن كثير (أن تصيبهم فتنة أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة[١] وقوله تعالى: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**﴾ (المائدة: ٤٩)، أي يصدوك ويردوك.

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾ (الحديد: ١٤)، أي فتنتم أنفسكم وأوقعتموها في النفاق بسبب المعاصي والملذات[٢].

وقد حرر الإمام الشاطبي ضابطا للفتنة فقال: «وضابط الفتنة ما صد عن طاعة الله»[٣].

ومن أعظم الفتن فتن الكفار والمنافقين فهو السبب الرئيس في افتتان كثير من الخلق بالخرافة والشرك والكهانة والفساد ولا يتصور أن يسلم المسلمون من ذلك إلا إذا اعتصموا بالكتاب والسنة، وغاية ما عند المشركين والمنافقين إنما هو شُبه افتتنوا بها، ولو اتبعوا المحكمات ومنها الآيات الآمرة بالتوحيد وصرف العبادة لله سبحانه والآيات الناهية عن الشرك والخرافة والسحر والكهانة لسلموا مما وقعوا فيه[٤] ولكن أهل الشرك والزيغ من المنافقين لم يسلموا من ذلك وازدادوا فتنة وسوءا وتخطيطا لمحاربة الإسلام وقد حذر من طريقة الزائغين القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٨).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٣١٠).
(٣) الاعتصام (١/ ٤٣) تحقيق الأستاذ سليم الهلالي.
(٤) انظر تفسير ابن عطية (٢/ ٣٣٨).

وطريقة الزائغين يدخل فيها المنافقون قديما والحركات الهدامة حديثا ترجع إلى هذه الأمور:

١- اتباع المتشابه وعدم رده إلى المحكم.

٢- عدم جمع أطراف الأدلة.

٣- الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في رد المحكمات.

٤- عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية[1].

وعلى هذه الطريقة نشأة الفرق الضالة، والواجب الحذر من هذه الأمور والرجوع إلى منهج القرون المفضلة من الصحابة والتابعين والاقتداء بهم.

ولهذا كان تفسير إمام المفسرين ابن عباس رضي الله عنهما للمحكمات بأمثلة هي أصل وعماد لفروع كثيرة وجزئيات لا تنحصر وهي عاصمة من الزيغ والضلالة.

وقد أحسن ابن عباس رضي الله عنهما اختياره للآيات من سورة الأنعام:قال الله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)**﴾ (الأنعام)، ومن سورة الإسراء ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ**

(١) الاعتصام (١/ ٢٤٩).

فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾ (الإسراء)، فهذا نموذج واضح تنطبق عليه تلك الأوصاف التي ذكرها المفسرون بعده للمحكمات، وهذا هو الذي فهمه ابن عطية - رحمه الله - حيث قال: (وهذا عندي - أي قول ابن عباس - مثال أعطاه للمحكمات)[1] أي المثال الذي ذكره في سورتي الأنعام والإسراء.

ومثله ما جاء في كتاب التحرير والتنوير: قال بأن مقصد ابن عباس بالتمثيل بهذه الآيات: بأن المحكم ما لا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله، وتحريم الفواحش وذلك ما تضمنته الآيات من سورة الأنعام والآيات من سورة الإسراء[2].

واختيار هذه النماذج عند ابن عباس وغيره إنما هي للمثال وليس للحصر.

(١) تفسير ابن عطية (٢/ ٣٣٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ١٠).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٥).

ونحن إذا تأملنا كلام المفسرين نجده يؤكد أوصاف المحكمات في تعريفات الأصوليين السابقة فالمحكم عندهم جميعا موصوف بأوصاف متعددة، من ذلك وصفها بأنها بينات، وأنها معظم الكتاب، ومنهم من وصفها بأنها أصل وعماد كما في كلام ابن جرير، ومنهم من وصفها بأنها حجة وعصمة ودفع للخصوم كما في كلام محمد بن إسحاق ومحمد بن جعفر، ومنهم من وصفها بأنها بينات واضحات لا تحتاج إلى غيرها، وهذا واضح في كلام النحاس وابن عطية وابن كثير والقرطبي حيث وصفها بأنها أصل، وهذه الأوصاف يؤكد بعضها بعضا، فالمحكمات بينات واضحات، لذا كانت أصلا وعمادا وعصمة وحجة تدفع بها الخصوم، وعلاجا لجميع المتشابهات إذا طرأت على المكلف ووقاية منها قبل وقوعها، وهي حصن للمجتمع الإسلامي، وحماية للشريعة واتباعها إلى يوم الدين، والرد إلى تلك المحكمات هو منهج أهل السنة، ولهذا تميز منهجهم بأنه حق وهدى وواضح ومبني على أصل وعماد وحجة بينة وهذا المنهج هو المنهج الحق المبني على الكتاب والسنة، وبه يسلم المجتمع الإسلامي من الافتتان بشبه الكفار والمنافقين وعلى أساس تلك المحكمات تتحدد وجهته، ويقوم بناؤه، ويجتمع أهله على صراط مستقيم[1].

وهذا هو العاصم للمجتمع من مكر الأعداء من الكفار والمنافقين ويمكن أن نستفيد من كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يلي:

- شمول المحكمات للأصول العقدية والأصول العلمية كالتوحيد وتحريم الشرك بالله ووجوب العدل وحفظ النفس والمال وتحريم البدع والسبل المضلة.

- أن هذه الأصول التي وردت في الآيات التي اختارها ابن عباس نموذجاً للمحكمات تحيط بالمجتمع من جميع جوانبه.

- أنها السبيل الوحيد في الدنيا لحفظ الفرد والمجتمع وسبيل النجاة في الآخرة.

(١) راجع المعنى اللغوي للمحكم واربط بينه وبين المعنى الشرعي، ومقصد الشريعة إقامة مجتمع على بناء وثيق وعلم صحيح ووجهة سليمة وذلك مضاد لمقاصد المشركين والمنافقين.

- أن الالتزام بها والاعتصام بها هو السبيل الوحيد لاجتماع كلمة المسلمين وتحقيق قوتهم المعنوية والمادية كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٣).

- أن المحكمات هي الأصول التي تُبنى عليها علوم الشريعة كما بيناه عند ذكر المحكمات التي يُبنى عليها الفقه الإسلامي[1].

- أن المحكمات جاءت بحفظ الضروريات الخمس كما دلت على ذلك الآيات السابقات التي اختارها ابن عباس - رضي الله عنه -:

١- حفظ الدين، دل عليه قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقوله ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقوله ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ (الإسراء: ٢٣).

٢- حفظ النفس دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾ (الإسراء: ٣٣).

٣- حفظ النسل قال الله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ**

(١) راجع كتاب المحكمات ص ٣٢.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

٤- حفظ المال كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٤)، وقوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦).

٥- حفظ العقل كما في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، حيث ربطت الآيات السابقات بين سلامة العقل وسلامة الإنسان من الآفات والخرافة، وكذا التزامه بالأحكام التي اشتمل عليها الصراط المستقيم ويدخل فيه كما سنبين تحريم المسكرات والمخدرات والأهواء المنحرفة التي تضر بالعقل وتفوت عليه مصالحه الدنيوية والأخروية.

وقد اتضح لنا أن الأمثلة التي اختارها ابن عباس رضي الله عنهما وأجمع على بيانها أهل العلم أنها تمثل أساس الشريعة ومحكماتها، وتحفظ الضروريات الخمس، ولم تقتصر على الأصول العقدية، بل شملت الأصول العملية، كما أنها هي العاصم للمجتمع الإسلامي بحيث تكون حافظة للضروريات الخمس، وعليها مدار تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية للمكلفين في جميع العصور، ولا يمكن أن تتحقق السلامة للفرد والمجتمع إلا بها، كما أنه لا تتحقق الوحدة بين المسلمين إلا بالاجتماع عليها والاعتصام بها، وكذلك لا يتحقق المجتمع الإسلامي إلا بالبناء عليها ومن أجل ذلك عمل المنافقون على تقويض المحكمات، وتشكيك المسلمين فيها، ونشر الشبهات حولها، وسيأتي معنا ذكر نماذج من هجمات المنافقين على المحكمات من أجل إضاعة الدين، وهلاك الأنفس، والأعراض والأموال، رغبة منهم في فتنة المسلمين عن دينهم وتحويلهم عن الصراط المستقيم، وزلزلة بناء المجتمع الإسلامي وتغيير وجهته، وإذا رجعنا إلى آية سورة آل عمران، علمنا أن التنبيه فيها على أهمية المحكمات يرجع إلى ما اشتملت عليه

من أوصاف من كونها بياناً وحجة وأساساً وعصمة يعتصم بها المسلمون من كيد المنافقين وأهل الأهواء والمشركين من أهل الكتاب وغيرهم، ومن عرف أوصاف المحكمات علم سبب تركيز المنافقين على إبعاد المسلمين عنها وذلك لأن تلك المحكمات عليها مدار حفظ الضروريات الخمس عند علماء الشريعة من الفقهاء والأصوليين.

وننبه في هذا الموضع إلى أن هذه الأوصاف قد اشتمل عليها اسم المحكم عند الأصوليين سواء منهم من لاحظ كونه محفوظا غير منسوخ، أو من لاحظ كونه بينا مستقلا بنفسه، أو من لاحظ كونه أصلا وأساسا.

ونبين هنا ارتباط هذه الوجوه أو الخصائص بما ورد في آية آل عمران من أوصاف للمحكمات، وكلام المفسرين لآية آل عمران في المبحث السابق يؤكد أوصاف المحكمات عند الأصوليين فالمحكم عندهم جميعا موصوف بأوصاف متعددة، من ذلك وصفها بأنها بينات، وأصل وعماد كما في كلام ابن جرير، ومنهم من وصفها بأنها حجة وعصمة ودفع للخصوم كما في كلام محمد بن إسحاق ومحمد بن جعفر، ومنهم من وصفها بأنها بينات واضحات لا تحتاج إلى غيرها، وهذا واضح في كلام النحاس وابن عطية وابن كثير والقرطبي حيث وصفها بأنها أصل، وهذه الأوصاف يؤكد بعضها بعضا، فالمحكمات بينات واضحات، لذا كانت أصلا وعمادا وعصمة وحجة تدفع بها الخصوم.

وهذه الأوصاف وردت الإشارة إليها في سياق آية آل عمران وبيان ذلك كما يلي:

١- كونها بينات وهذا مأخوذ من وصفها بأنها عماد وأصل وأساس، والإحكام من معانيه الإتقان والوضوح، فهي أصل وأساس يُرد إليها عند الاشتباه، ولا يرد إلاَّ إلى الواضح البين، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، فالراسخون يردون محل الاشتباه إلى المحكمات، لأنها أصل

وأساس يرفع الاشتباه، ولا يرفع الاشتباه إلاَّ البينات، بخلاف أهل الزيع من المنافقين فإنهم يعارضون المحكمات ويبغون المتشابهات كما جاء في الآية.

٢- كونها معظم الكتاب فإن من معاني أم الكتاب أي معظمه.

٣- كونها أصلا وأساسا والدليل على ذلك أن المحكمات وصفت في الآية بأنها أم الكتاب أي أصله وعماده كما ذكر ابن جرير وغيره، وأُمُّ كل شيء أصله وأساسه.

٤- كونها حجة تدفع الخصوم وأهل الزيغ،وهذا الوصف مأخوذ من الآية نفسها، لأن أهل الزيع والفتنة من المنافقين إنما فتنوا وزاغوا لما تركوا المحكمات وهي حجة عليه تكشف باطلهم وتدحضه.

٥- كونها عاصمة من الضلالة، وهذا الوصف مأخوذ من الآية، لأن الراسخين في العلم لما علموا بها وردوا إليها المتشابهات عصمهم الله من الضلالة، وأهل الزيغ لما أعرضوا عنها لم يُعصَمُوا من الضلالة، وكذلك المنافقون كما قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الصف: ٥).

٦- كونها محفوظة غير منسوخة، وهذا الوصف مأخوذ من قوله (محكمات) كما مر بيانه في المعنى اللغوي وكلام المفسرين وقد سبق ذكر كلام الأصوليين فإذا أطلقوا القول: بأن النص محكم، فإن ذلك يفيد أنه محفوظ غير منسوخ[1].

ونختم هذا المبحث ببيان إعجاز المعنى الذي اشتملت عليه الآية في سورة آل عمران ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ (آل عمران: ٧)، وقد حددت الآية المشكلة في انحراف البشر، وحددت العلاج، ونعرف ذلك من سبب نزول صدر سورة آل عمران لأنها نزلت في النصارى[2] لمعالجة انحرافاتهم العقدية التي سببها اتّباع المتشابهات وترك

(١) انظر تفسير ابن كثير في أول سور آل عمران.

(٢) انظر كتاب المحكمات حوارات وتطبيقات ٩٠-٩٣ طبعة مركز الفكر المعاصر.

المحكمات، والآية عامة لهم ولغيرهم ممن صنع مثلهم سواء أكانوا من مشركي أهل الكتاب (من اليهود)، أم من مشركي العرب أم مشركي العجم، ويدخل معهم المنافقون لأنهم من جنسهم، وسبب زيغهم وضلالهم ابتغاء الفتنة، واتباع المتشابهات.

لقد حددت الآية سبب: ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل المتشابهات، والفتنة الشرك واتباع المتشابهات هي السبب في رد الشريعة ومحكماتها.

إن هذه المشكلة هي أكبر مشكلة عند المخالفين ولهذا فإن الإعجاز في هذه الآية شمل أمرين اثنين:-

١- تحديد المشكلة عند البشرية

٢- ثم تحديد علاجها

ولهذا قدمنا بيان المحكمات وتفسير هذه الآية وكلام أهل العلم عليها لنعلم مدى خطر المنافقين في التشكيك في المحكمات، ومن أهم المحكمات التي حاول المنافقون زعزعتها وإثارة الشبه عليها:

١- الإيمان بالوحي والنبوة.

٢- وجوب التحاكم إلى الشريعة.

٣- الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من أعدائهم.

٤- الوحدة الإسلامية بين المسلمين.

٥- مبدأ الفضيلة والعفاف.

وسنبين ذلك بالنماذج العملية والقولية التي تكشف جهود المنافقين في زعزعة المحكمات كما سيأتي معنا في المبحث الثاني.

المبحث الثاني
موقف المنافقين من المحكمات

استطاع المنافقون تسليط كيدهم ومكرهم على أهم المحكمات، ومن ذلك تشكيكهم في الوحي والنبوة والشريعة، والصحابة رضوان الله عليهم، وعملوا على نقض الوحدة الإسلامية للمجتمع، وإشاعة الفاحشة فيه، وتثبيط المسلمين عن الجهاد، ونشر المتشابهات.

والمتأمل في حركة المنافقين يجد أنها لا تمثل مواقف مستقرة ومكشوفة وطبيعة الكفار الصرحاء، كما أنها ليست منفصلة عن جسد الأمة كما انفصلت الأمم الكافرة، بل هي متداخلة مع أفراد المجتمع الإسلامي ومؤسساته، تلبس لبوسه وتتحرك بحركته وتعيش في أرضه، وبين أهله وفي جيش المسلمين وفي مساجدهم وفي حالات السلم والحرب وفي جميع المجالات، وفي ذات الوقت تستمسك حركة المنافقين بعلاقة وثيقة مع أعداء المجتمع من الخارج وتستفيد من تخطيطهم ضد الإسلام وأهله، وتمكر بالمسلمين من داخل حصونهم، وكل ذلك يغطونه بالشرعية فترى زعماء النفاق يدّعون الإيمان بالرسول ﷺ ويظهرون ذلك، كما صنع كبيرهم عبد الله بن أبي سلول، وهو يقف على الرسول ﷺ في مسجده ويشهد إنه لرسول الله كما ذكر الله عز وجل في سورة المنافقين قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)**﴾ (المنافقون).

وهكذا استمرت حركة المنافقين تعمل ضد محكمات الشريعة ووفق خطةٍ إعلاميّةٍ وتكامل بين قياداته مستفيدين من كل فرصةٍ متاحة لتحقيق أهدافهم، فأصبحت تلك المحكمات هدفاً لهم محاولين تفكيك المجتمع الإسلامي من داخله، ونشر الخلافات والفرقة بين أهله، وذلك لإضعاف قوة المجتمع، بل

أضعفوا القوة العسكرية في معركة أحد، إذ استطاعوا أن يرجعوا بثلث الجيش قبل المعركة بيسير وهم في الطريق إليها، وأما الاتصالات مع الأعداء فسنذكر لها نماذج من السيرة، وكذلك مشاريعهم الفاسدة التي كانوا يقصدون من ورائها ضرب المجتمع في قياداته وخلخلة وحدته.

إن حركة المنافقين ما زالت تقتنص الفرص لتقويض دولة الإسلام والتلبيس على المسلمين ومحاولة شق الصف عند حدوث ضعف بين المسلمين أو هزيمة وكل ذلك بمكر وحيلة وخديعة ودهاء وتخطيط، ولا عجب من عدو للإسلام بين أهل الإسلام يعمل ليل نهار ويستمد قوته وخبرته من المشركين في الخارج ومن فرق اليهود ومخططاتهم ضد الإسلام وأهله، وحركة النفاق كما سيأتي بيانه مكونة من خبرات داخلية وعالمية لمحاربة الإسلام والمسلمين، ونذكر هنا النماذج التي تدل على هذا كله.

موقفهم من الوحي والنبوة:

سلك المنافقون مسلك اليهود في الكفر بالرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام، والعزم على الاستمرار في عداوته.

أخرج ابن هشام بسنده (أن أبا عامر[1] الفاسق أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة، فقال ماهذا الدين الذي جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال فأنا عليها، فقال له رسول الله ﷺ لست عليها، فقال: بلى، قال: إنك أدخلت في الحنيفية يا محمد ما ليس منها قال: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية، قال: الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا، يعرض برسول الله ﷺ أَيْ: أنك جئت بها كذلك، قال: رسول الله ﷺ: أجل فمن كذب فعل الله تعالى ذلك به، وكان هو ذلك عدو الله، خرج إلى مكة فلما افتتح رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريدا وحيدا غريبا[2].

(١) هو أبو عامر عبد عمرو ابن سيف ابن النعمان وقد كان ترهّب في الجاهلية وكان يقال له الراهب وسماه رسول الله الفاسق. انظر سيرة ابن هشام ٢-٢٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٦.

وقد كان أبو عامر هو الذي يمد المنافقين بدعمه وخططه كما صنع معهم في مسجد الضرار وسيأتي بيان ذلك.

وقد تبعه في سلوك هذا الطريق المنافقون من الخزرج والأوس وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول ولكنهم بقوا في المدينة وأظهروا الإسلام نفاقا وأخذوا يشككون في الحنيفية دين الإسلام، ويعترضون محكماتها ويشككون في تصرفات الرسول ﷺ.

واستمر المنافقون في اتهام الرسول ﷺ بالكذب وفي غزوة تبوك ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل بعض أصحابه في طلبها فقال أحد المنافقين وهو زيد بن اللُّصيب القينقاعي أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟! فقال رسول الله ﷺ: وإني والله لا أعلم إلاّ ما علّمني الله، قد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا فحبستها شجرة بزمامها فانطلِقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها)[1].

ومن ذلك تشكيكهم المسلمين في أمر القبلة حيث تابع المنافقون اليهود والمشركين في التكذيب بالوحي والاعتقاد السيىء في النبي عليه الصلاة والسلام حيث اعتقدوا أنه متحيّر وشاك ولا علم عنده وإلا فكيف يحول قبلته[2]، ونسوا أنه نبي يوحى إليه وأنه يأتمر بأمر الله عز وجل، وأن تحويل هذه القبلة إنما كان للابتلاء والاختبار، وتحقيق مقصد الله عز وجل في تعظيم بيته الحرام أول بيت وضع للناس والذي بناه أبونا إبراهيم وعظمه الأنبياء من بعده، ونزل في شأن اليهود ومن وافقهم من المنافقين قول الله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (البقرة: ١٤٢)، وقد ردَ عليهم القرآن الكريم في هذا البيان لعلهم يرجعونَ إلى الحق ويعلمون أن الوحي حق وأن النبوة حق وأنه يهدي إلى صراط مستقيم له الحكمة الظاهرة والحجة البالغة.

---

(١) السيرة النبوية (٤ / ٢٠٩).

(٢) جامع البيان (٢ / ١٢).

ولا يزال هذا الريب والشك يتردد في قلوب المنافقين ولهذا وصفهم الله عز وجل بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾ (التوبة: ٤٥).

ومن ذلك ما أخرج ابن جرير بسنده من حديث عروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ (التوبة: ٧٤)، قال نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت قال إن كان ماجاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمر)، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ عنه أنكره[1].

وترتب على هذا الشك والريب أن سخروا بالقرآن الكريم قال الله تعالى عنهم ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٧).

ومع عناية الرسول ﷺ بهدايتهم وبيان الحق لهم إلا أنهم أصروا على الكفر وأخذوا يفسدون بين المسلمين ويزعمون أنهم مؤمنون ومصلحون ولهذا كشف القرآن كذبهم قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٨)، وهكذا استمرت المعركة بين المنافقين وبين المسلمين حول أعظم محكمات الشريعة وهي التوحيد والإيمان بالرسول والرسالة، واستفاد المنافقون من عقائد المشركين أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان الذين تعاونوا في نشر الشرك والخرافة واستمروا في معارضة الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام وكان المنافقون في الداخل هم الأعداء الذي يروجون لهذا الفساد كله.

وقد استمر النفاق كما أشرنا سابقاً في حركات الملاحدة والمذاهب الهدامة وساعدهم في التشكيك في الدين وفي أحكام الشريعة الإسلامية العلمانيون، وأما

(١) جامع البيان (١٠ / ١٨٥).

أهل الأهواء والفرق الباطنية التي تنتسب إلى الإسلام فقد استمرّوا في تشكيك المسلمين في ما جاء به الرسول محمد ﷺ في سنته وطعنوا في صحابته وكل ذلك تحت شعار من التلبيس والخداع.

والمتأمل في المُحْكمين السابقين: التوحيد والإيمان بالرسول والرسالة، يعلم علم اليقين أنه لا صلاح للبشرية إلا بالإيمان بهما والالتزام بما يترتب على ذلك من الاعتقادات الصحيحة والشرائع الظاهرة وأنه لا صلاح للبشرية إلا بذلك، وأن المفسدين الذين يزعمون أنهم مصلحون لا يزال همهم هو إسقاط العمل بهذين المحكمين والتشكيك فيهما وإدخال النقض عليهما، يلبسون الحق بالباطل ويقولون على الله بغير علم، فلما زاغ المنافقون عن هذين المحكمين أزاغ الله قلوبهم عقوبة لهم جزاء ما كسبت أيديهم ثم حذر من فتنتهم وأمر المسلمين بالسعي بكل الوسائل الممكنة لدرء هذه الفتنة وهذا الزيغ عن المسلمين خاصة وعن البشرية كافة وصدق الله إذا يقول فيهم ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الصف: ٥).

موقفهم من التحاكم إلى الشريعة:

إن الحكم بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما من أهم الواجبات التي أوجبها الله على عباده، لأنها السبيل إلى تحقيق الإيمان بالشريعة والطريق إلى العمل بالأحكام ولا تقوم مقاصد الإسلام إلا بذلك، ولهذا أمر الله بالاعتصام بها كما في قوله سبحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمؤان: ١٠٣)، ونهى عن التفرق عنهما كما في قوله: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (آل عمران: ١٠٥)، وجعل الذين

يتفرقون عن الدين ويعرضون عن الشرع مفتونين وجوههم مسودة قد توعدهم الله بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (النور: ٦٣)، قال الإمام أحمد الفتنة البدع والأهواء والشرك،والعذاب في الدنيا والآخرة[1] ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)**﴾ (آل عمران:)، ورحمته جنته، وفي المنافقين نزل قولَه تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا**﴾[2] (النساء: ٦١)، وكل هذه المواعظ الزاجرة لم تنفع مع المنافقين، فاستمروا في عداوتهم للإسلام حتى خرجوا عن أحكامه وصراطه المستقيم.

وقد كانت معاني الإسلام العقدية في هذا المجال واضحة وضوح الشمس من حين أعلن رسول الله ﷺ الدعوة إلى التوحيد وأمر بالكفر بالجاهلية، وجعل لأهل الإسلام منهجا واحدا هو الشريعة، وعرّف الناس الحق، إله واحد، ومنهج واحد تمثله شريعة ربانية لا لبس فيها ولا غموض، ولا يجوز الحكم بسواه ولا التحاكم إلى غيرها.

هكذا علم أهل الصدق والإيمان الحقَّ وعملوا به واستمسكوا به، أما المنافقون فلا يزالون في ريبهم يترددون وإلى غير شريعة الله يتحاكمون، ويزعمون أنهم مؤمنون، وهم يجادلون في محكمات الدين ومن أعظمها الاحتكام إلى الشريعة والولاء لأهلها، محكمان أساسيان لا يقوم الدين إلا بهما.

فكما أن المحكم الأول هو توحيد الله وترك الشرك، والمحكم الثاني هو الإيمان بالرسول والرسالة، والمنافقون لا يؤمنون بذلك بل قلوبهم في الظلمات والرجس وهم لا يعلمون، فكذلك هذان المحكمان الأساسيان، وهما الاحتكام

(١) انظر تفسير ابن كثير لهذه الآية من سورة النور.

(٢) الآيات (٦١ -٦٢ -٦٣ -٦٤- ٦٥) انظر تفسير ابن كثير وكتاب المنافقون في القرآن الكريم ص ١٣٦.

إلى الشريعة، والولاء لأهلها قد كفَرَ بهما المنافقون، فذهبوا يتحاكمون إلى زعماء الجاهلية وزعماء اليهود، ويوالونهم من دون المؤمنين، والأدلة والنماذج في ذلك كثيرة منها:-

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ (النساء: ٦٠)، ورد في تفسير هذه الآيات روايات وأحاديث كثيرة[1] ويدخل في معنى هذه الآيات دخولا أوليا المنافقون وكل من كان مثلهم ممن يتهم رسول الله في حكمه (وقد نزلت في بعض المنافقين الذين امتنعوا من التحاكم إلى رسول الله وذهبوا يتحاكمون إلى الطاغوت ولهذا قال الله عنهم ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (النساء: ٦٥).

(وقد خضع المؤمنون للأمر وكانوا لا يتحاكمون إلا إلى النبي ﷺ باعتباره المنفذ لأمر الله، أما المنافقون فإنهم يرفضون التحاكم إليه فيما إذا كان الحق عليهم لأنه لا يحقق لهم رغباتهم في ظلم الآخرين، أما إذا كان الحق لهم فإنهم يرضون بالتحاكم إليه لأنه سيوصل إليهم حقوقهم) كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ (النور: ٤٧)، قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿**أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ**﴾ (النور: ٥٠)، قال - رحمه الله -: وكل ذلك كفر وشك وريب[2].

وهذا من التناقض الواضح إذ كيف يؤمنون بدين لا يتحاكمون إليه عند التنازل إلا إذا كان لهم مصلحة في ذلك، وهذا دليل على عدم إيمانهم إيمانا حقا،

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير باب (فلا وربك لا يؤمنون) فتح الباري (٨/ ٢٥٤) وجامع البيان (٥/ ١٥٣ وما بعدها).

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية في سورة النور.

فالتحاكم إلى غير ما أنزل الله من علامات الكفر والنفاق وإن ادعى صاحبه أنه مؤمن بالإسلام)[1].

موقفهم من الولاء والبراء:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ (المائدة: ٥٥)، هذا هو منهج القرآن في الولاية بين المسلمين وأما في البراءة من غيرهم فقال الله عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (الممتحنة: ١).

أما المنافقون فلم يرفعوا بذلك رأسا ولم يعملوا بالآيتين السابقتين ولا بمثيلاتها من القرآن الذي انتشر فيه البلاغ المبين بأن هذا هو دين المسلمين ومع هذا الوضوح والبينات المحكمات أبى المنافقون إلاّ أن ينتصروا للكفار ضد المؤمنين، وقد زاد ولاؤهم لليهود في المدينة وظهر ذلك في مواقف كثيرة، ولهذا نهاهم القرآن نهيا صريحا في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (المائدة: ٥١)، وهذه الآيات نزلت في زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول فإنه تولى يهود بني قينقاع الذين حاربوا الله ورسوله، وتشبث بنصرتهم لأنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية فقدم ولاء الجاهلية على ولاء الإسلام بخلاف أهل الإيمان من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الصادقين فإنهم قدموا ولاء الإسلام على ولاءات الجاهلية، فهذا الصحابي الجليل، عبادة بن الصامت – ﷺ – وقد كان بنو قينقاع حلفاءه في الجاهلية ولكنه تبرأ من حلفهم لما

(١) انظر المنافقون في القرآن الكريم ص١٣٢-١٣٣.

علم أنهم حاربوا الله ورسوله وقال: (يارسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم) ففيه وفي عبد الله نزلت هذه الآية[1] وفي هذا الموقف درس عظيم لمعرفة كيف يكون الولاء والبراء وكيف يعمل المسلمون بهذا المحكم من محكمات الدين، وفيه أيضا كشف للمنافقين الذين كانوا يوالون اليهود ويحاربون الله ورسوله

وقد بدأت العلاقات بين الأنصار واليهود تنفصل حين أظهر اليهود العداوة والحرب للإسلام والمسلمين ونبذوا العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، وقد ظهرت البراءة جليا من موقف عبادة بن الصامت – رضي الله عنه –، واستمر عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين، في ولائهم لليهود وتخطيطهم معهم على عداوة الإسلام وأهله وهذا هو الفرق بين المؤمنين والمنافقين في التعامل مع الرابطة الإسلامية (وهذه الرابطة السامية لا يمكن أن يجتمع معها شيء من الروابط الجاهلية ولا يمكن أن يجتمع في قلب رجل واحد محبة الله جل وعلا ومحبة الكفار كما لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد محبة المؤمنين ومحبة الكفار، ولا محبة الإسلام ومحبة مناهج الكفر، لأن ذلك كله من الجمع بين الضدين ولذلك قال الله تعالى: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** (البقرة: ٢٥٦)، ونفى سبحانه الإيمان عمّن يواد من حاد الله ورسوله حيث قال الله تعالى: **﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (المجادلة: ٢٢).

و الحب في الله من الخصال الثلاث التي يجد بهن العبد حلاوة الإيمان حيث قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب

(١) انظر جامع البيان للطبري عند تفسير هذه الآية في سورة المائدة.

إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)[1].

(كان صحابة الرسول ﷺ يفهمون هذه الرابطة فهما جيداً... فكانوا يحبون المؤمنين ويناصرونهم، وإن كانوا بعيدين عنهم في النسب أو اللغة أو الوطن أو يخالفونهم في اللون، وضم مجتمع المؤمنين في المدينة العرب بمختلف قبائلهم، مع أبناء فارس والحبشة والروم وغيرهم، وكانوا يعادون الكفار وإن كانوا من أقرب الناس إليهم، بل إنهم قاتلوا في المعارك آباءهم وإخوانهم وأبناءهم الكفار، كما في معركة بدر فلم تمنعهم قراباتهم لهم من قتالهم، لأنهم قد ألغوا جميع الروابط البشرية ما عدا رابطة الأُخُوَّة في الله)[2] وهكذا فهم المسلمون هذه الحقيقة الكبرى والتزموا بها وهي التي حفظ الله بها هذا الدين العظيم، فلا تزال هذه الرابطة هي الرابطة الوحيدة بين المسلمين الصادقين المخلصين تزيدهم إيمانا وقوة واستمساكا بالوحي وقياما بحق الأمة الإسلامية الواحدة في الولاء لها ونصرتها والبراءة من أعدائها، بخلاف المنافقين الذين استمسكوا بالروابط الجاهلية قبل الإسلام والتي تفرق ولا تجمع وتورث العداوة والبغضاء بين البشر وبسببها قامت الحروب الطاحنة في الجاهلية الأولى، وما زالت في عصر عولمة الحروب التي تهلك الحرث والنسل، وهي لا تقوم على مبادئ صحيحة.

وقد جاء الإسلام ليجمع البشرية على الرابطة الإسلامية، رابطة الأخوة الإيمانية، فالمؤمن أخو المؤمن، مهما كان نسبه ولسانه ولونه ووطنه ومنزلته المادية، وهذه الرابطة الإسلامية باستطاعة أي فرد أن ينالها وأن يظفر بنتائجها السعيدة، فبمجرد دخول الإنسان بهذا الدين يكون أخا للمؤمنين بهم جميعا، ويكون أهلا لمحبتهم ونصرتهم، بخلاف الروابط الجاهلية[3].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب من كره أن يعود في الكفر فتح الباري (١ / ٧٢).
(٢) انظر الأمثلة على ذلك في كتاب لحميدي (المنافقون في القرآن الكريم) (١١٠-١١١).
(٣) المنافقون في القرآن الكريم بتصرف ١٨٠.

وأمّا المنافقون والمشركون والكفار فقد جعلوا العلاقة بينهم تقوم على الروابط الجاهلية واتخذ بعضهم بعضًا أولياء حتى دخل بعض اليهود في الإسلام نفاقا وأخذ ينصر بعضهم بعضاً على محاربة الله ورسوله والمؤمنين.

ولهذا استمر المنافقون وأولياؤهم من الكفار في محاولة تفكيك المجتمع الإسلامي من داخله والانحراف بالمسلمين عن تكوين الأمة الواحدة وحماية الدولة الإسلامية وتفريق الناس عنها وعن ولايتها ووحدتها، وسيأتي معنا ما يؤكد هذا المعنى من محاولتهم لضرب الوحدة الإسلامية وإثارة النعرات الجاهلية بين الصحابة رضوان الله عليهم، رغبة من المنافقين في إثارة الجاهليات والعنصريات وتحويل مسيرة المجتمع الإسلامي عن الصراط المستقيم.

موقفهم من الصحابة رضي الله عليهم:

أخرج ابن جرير الطبري من حديث عبد الله بن عمر قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق)، ومن ذلك أيضاً ما كانوا يلمزون به الصحابة في الصدقات[1].

وهذه السخرية بالصحابة والطعن بهم أراد المنافقون منها تشويه صورة الإسلام وأهله والصد عنه، فإذا كان هذا حال دعاته والقائمين به فمن سيتبعهم ويطمئن إليهم.

وجرى المنافقون على اقتناص الفرص من أجل تحقيق هذا الهدف وطعنوا في بيت النبوة في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأخذ رأس النفاق عبد الله بن سلول في إشاعة الفاحشة والحديث حول الإفك الذي تولى كبره وأقره وسمعه وأخذ يستوشيه،حتى غرر ببعض المسلمين وخاضوا فيه[2].

---

(١) سبق ذكره.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٧ / ٤٣٢) وأقام النبي ﷺ حد القذف عليهم تطهيرا لهم ولم يقم الحد على عبد الله بن أبي بن سلول ولا على أحد منهم لأسباب سيأتي بيانها عند الحديث عن طريقة تعامل النبي ﷺ معهم.

فقام النبي ﷺ خطيبا بين أصحابه فقال: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت عن أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ فقال: يارسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك) قالت عائشة: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا وسكت.

ولا ريب أن هذا الصنيع هو إثارة للفتنة وتهديد المجتمع من حصونه من الداخل، وزعزعة للثقة به، وإثارة الشبهات حوله، وقد كاد يتحقق بعض ما أراده المنافقون من حصول الفتنة بين الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي بن سلول فبعضهم يتهمه بأذية رسول الله ﷺ وبعضهم يدافع عنه لأنه لا يعلم حقيقة حاله[1]، حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وهذه الفتن التي يشعلها المنافقون بسبب تشويههم لأهل الصلاح والإيمان مازالت مستمرة في الفرق الباطنية التي طعنت في أصحاب رسول الله ﷺ طعنا أشد من طعن المنافقين، وأثارت الفتن طوال التاريخ الإسلامي وزلزلت وحدة المجتمع وكفرت الصحابة رضوان الله عليهم وطعنت في منهج الجيل القدوة وخرجت عن معنى الجماعة الذي قصده النبي ﷺ في قوله (ما أنا عليه وأصحابي) وقد تعرض الصحابة قديما وحديثا لمثل هذه الطعون بل أشد مما وقع

(١) انظر تفاصيل القصة في فتح الباري (٧/ ٤٣٣).

في الجيل الأول وما قام به عبد الله بن سبأ المنافق هو أشد مما قام به عبد الله بن أبي ابن سلول.

وحماية هذه المحكمات السابقة ومنها حسن الاعتقاد في الصحابة رضي الله عنهم ومعرفة منزلتهم والدفاع عنهم ومناصرتهم على الإسلام من محكمات الدين العظيمة التي يجب إحياؤها وتبليغها للناس والبناء على ما ورثناه منهم من عقيدة صحيحة، وعمل صالح، وسنة مُتَّبَعَة، وهو العلاج الناجع بإذن الله لحركات المنافقين في كل عصر، وحتى يعلم الناس أهلَ الحق وأهل الباطلَ، وحتى يميزوا بين الصالحين والمفسدين، وقد كذب المنافقون لما قالوا متهمين لأصحاب رسول الله ﷺ ﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ١٣)، ونحن نقول عملا بالآية بعدها بل أنتم السفهاء الطاعنون في صحابة رسول الله والساعون إلى نقض وحدة هذه الأمة وإثارة النعرات الجاهلية، ونشر أفكار الشرك والخرافة والبغي والظلم والفساد في الأرض ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ (البقرة: ١٢).

موقفهم من الفضيلة والعفاف:

إن المتأمل في شرائع الأنبياء يجد أن هذا المحكم وهو وجوب حماية الفضيلة وتحريم الزنا، وسائر الفواحش من أعظم المحكمات في مجال الأخلاق وحفظ الأسرة ولهذا أدخله الله عز وجل مع محكمات أساسية في آية معجزة من آيات القرآن الحكيم تحدثت عن أكبر جرائم البشرية وجعلت إباحة الفواحش من أعظم تلك الجرائم.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: ٣٣).

إن هذه الجرائم المذكورة في الآية هي سبب مشكلات البشرية والتي كان للمنافقين دور كبير في إشاعتها ونشرها، ولا ريب أن مقصود شرائع الأنبياء

عليهم السلام بناء مجتمع إسلامي على أسس الفضيلة ثم حمايته من كل ما يؤدي إلى إضعافها أو إزالتها.

وهناك فرق مهم بين أثر السلوكيات الفردية المنحرفة وهو من طبيعة البشر وبين الدعوة إلى نشر الفاحشة ومحبة انتشارها، وهو ما كان يصنعه المنافقون فيشيعون الفاحشة ويسعون إلى الفساد في الأرض.

وقد أشار العلماء للفرق بين هذين السلوكين، فالأول خطؤه فردي، وله آثار اجتماعية، وللشريعة الحكيمة طريقٌ في معالجته، والثاني خطؤه أكبر، وآثاره أشد، ومداه أبعد، ولا يكاد ينقطع التخطيط له عند المنافقين، لأن لهم هدفا أكبر قد خططوا له وجمعوا له الطاقات والقدرات وسخروا له الإمكانيات ألا وهو تغيير مسيرة المجتمع، وتفكيك أسسه ومحكماته، ولهذا قال الله عن المنافقين ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (النور: ١٩).

(والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، والمراد هنا جريمة الزنا وما يستفاد من سياق الآيات... وعبد الله بن أبي بن سلول هو الذي ابتدأ خبر الإفك على عائشة واستغل الفرصة ليفسد مجتمع المؤمنين لإشاعة الخبر الكاذب هو ومن تبعه من المنافقين لأنهم هم الذين يحبون انتشار الفاحشة في مجتمع المؤمنين ولا يدخل فيه القذفة من المؤمنين الذين يصدر عنهم القذف نتيجة ظن خاطئ أو انخداع بكلام الآخرين)[1] كما وقع من بعض الصحابة رضي الله عنهم وتم تطهيرهم بإقامة حد القذف عليهم.

ومن المفسرين من فسر إشاعة الفاحشة بالقذف نفسه، والجواب أنه لا يلزم بمجرد القذف محبة انتشار الفاحشة بين المؤمنين، كما لا يتوقف محبة الفاحشة على مجرد القذف، بل تكون بأساليب كثيرة وقد لا يقع القذف مباشرة من الرجل

(١) المنافقون في القرآن الكريم ٤١١.

المفسد، ويتحقق منه محبة انتشار الفاحشة، ولهذا ورد في العقوبات المشددة على المنافقين في الدنيا والآخرة فتوعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وأما العقوبة بالنسبة لأفراد المؤمنين الذين وقعوا في القذف فكانت مناسبة لفعلهم وهي عقوبة في الدنيا وكفارة في الآخرة، بخلاف المنافقين والحدود إن أقيمت عليهم ليست كفارة لهم إذا ماتوا على النفاق الأكبر باتفاق العلماء، وأما إذا تابوا من النفاق وأخلصوا دينهم لله فتقبل توبتهم[1].

ومبدأ العفاف من المبادئ العظيمة التي أعلنها الإسلام في بداية دعوته وهذا الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب يدافع عن مبدأ العفاف بين يدي النجاشي في خطبته التاريخية المشهورة وهذه الخطبة هي محاورة وجواب على سؤال في أكبر بلاط من بلاطات حضارات العالم سابقاً، وهذا السؤال هو: ما الذي جاء به الإسلام؟ وقد كان زعماء الجاهلية وأصحاب الديانات يستمعون إلى جواب جعفر - ﷺ - حيث قال للنجاشي: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل منا القوي الضعيف،، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا

(١) انظر الجواب مفصلا في المصدر السابق ٤١١-٤١٢.

قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث)[1].

وهذا المبدأ العظيم مبدأ العفاف والحجاب والستر والفضيلة هو الذي يسعى المنافقون المفسدون في الأرض لهدمه وقد تولى زعيمهم قديما عبد الله بن أبي بن سلول نشر الفاحشة وأخذ يتاجر في بغاء الإيماء وكذلك يصنع دعاة الفواحش والخلاعة وتحرير المرأة الذين ينشرون مناهج التغريب في العالم الإسلامي.

أخرج الإمام مسلم بسنده من حديث جابر قال كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابتغينا شيئا، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2] (النور: ٣٣).

وعن جابر أيضاً أن جارية لعبد الله بن سلول يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (النور: ٣٣).

وأخرج ابن جرير من طريق معمر عن الزهري أن رجلا من قريش أسر يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبي أسيرا وكان لعبد الله جارية يقال لها معاذة، فكان القرشي الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة كانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده فقال الله ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ**﴾ قال ﴿**وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (النور: ٣٣). (لهن ما أكرههن عليه)[3].

وهذه التجارة في الإماء كان يصنعها بعض أهل الجاهلية ومنهم هذا المنافق، وهذا العمل الخبيث استهانة بالإنسان، وهبوط به إلى مرتبة الحيوان، ونشر للزنى،

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٣٥٨-٣٥٩-٣٦٠-٣٦١).

(٢) صحيح مسلم كتاب التفسير عند قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٣).

(٣) جامع البيان (١٨ / ١٣٣).

وتسهيل لارتكاب الفواحش، وهدم للقيم والفضائل الإنسانية النبيلة، وهدم للمجتمع الإسلامي، الذي لا يزال المنافقون يعملون عليه في كل زمان،وشتان بين أفعال أهل الجاهلية، والمبادئ العليا التي جاء الإسلام ببيانها والعمل بها ونشرها كما قال جعفر بن أبي طالب في خطبته السابقة. ﴿**وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ (النساء: ٢٧).

موقفهم من الوحدة الإسلامية:

إن الاعتصام بالكتاب والسنة هو أساس الوحدة الإسلامية، وما ذكرناه من المحكمات التي عارضها المنافقون هي أساس لوحدة المجتمع، صغيرا كان أو كبيرا، كما أنها جامعة للمسلمين في كل زمان ومكان على اختلاف ألوانهم وأجناسهم إذا صدقوا في العمل بها واتباعها، وبها قوام المجتمع الإسلامي، ولهذا ربط الله بها الفلاح والصلاح وحذر المسلمين من التفرق عنها.

ولأجل أهميتها فقد حرص الكفار والمشركون على أن يفرقوا المسلمين عن دستورهم الذي هو الكتاب والسنة، لأنهم يعلمون أن المسلمين إذا تفرّقوا عن المحكمات في الكتاب والسنة، فإنهم يضلون ويضيعون مجتمعاتهم، لأنه لا يمكن حفظ المجتمع إلا بحفظ الضروريات الخمس المعروفة ولا يمكن أن يكون المسلمون أمة واحدة على عقيدة صحيحة وشريعة واحدة إلا باتباع المحكمات، ولم ينحرف الكفار والمشركون إلا بسبب تفرقهم عنها من بعد ما جاءهم العلم.

ولا شك أن المحكمات البينات هي الأصل والعماد الذي بنيت عليها مقاصد الشرائع الإسلامية التي أنزلها الله سبحانه على أنبيائه عليهم السلام، وعليها اجتمعت الكتب المنزلة[1]، فإذا كانت هذه المحكمات هي أساس الوحدة بين الأنبياء وأتباعهم من المسلمين فهي كذلك الأساس الذي تقوم عليه الوحدة

(١) فما من أصل في الشرائع السابقة إلا تضمنته الشريعة الإسلامية، من ذلك حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض والأخلاق وإذا قيل كيف عرفتم ذلك، وقد بكل أهل الكتب السماوية كتبهم قلت: عرفنا ذلك من القرآن الذي نص على ما ورد في التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغير ذلك من قصص الأنبياء الذي اشتمل على المحكمات في دعوتهم وطريقتهم الحسنى، وهو ما أثبتنا منه جملا في هذا الكتاب والحمد لله.

الإسلامية بين المسلمين في هذا العصر وقد تضمن القرآن الكريم الأسس المشتركة بين الشرائع الإسلامية السابقة ونوه بها وهو عندنا مصدر أساسيٌّ ثابت، وبه تحققت الوحدة بين المسلمين من اتباع الأنبياء عليهم السلام، وهذا يؤيد ما ذكره ابن عباس - ﷺ - في المحكمات وعليه إجماع الصحابة رضي الله عنهم وأئمة العلم المفسرين والفقهاء الأصوليين، كما بيّنّاه سابقا وهذه نماذج لهذه المحكمات، في مجال العقائد والعبادات والمعاملات، التي تؤكد هذا المعنى، وتحفظ وحدة الأمة الإسلامية.

وقد حاول المنافقون نقض هذه الوحدة الإسلامية وتفتيت كيان المجتمع الإسلامي بوسائل كثيرة كما أشرنا سابقا منها التشكيك في الرسالة، والطعن في الصحابة، والتحاكم إلى المشركين، وموالاة اليهود، والاستنصار بهم، وإحياء أمور الجاهلية، ونضيف هنا بعض الوسائل التي كانوا يمارسونها في تفكيك وحدة المجتمع من ذلك:

١- إحياء أمور الجاهلية والعصبية.

٢- تفكيك القوة الإسلامية.

٣- محاولة إسقاط القيادة الإسلامية.

٤- إنشاء مسجد الضرار.

وأما الأول والثاني فقد سبق ذكر نماذج عليهما، لما أراد المنافقون أن يثيروا الحمية الجاهلية بين الأوس والخزرج وأما تفكيك القوة الإسلامية يظهر في تخطيط المنافقين لخذلان الجيش الإسلامي في معركة أحد لما رجعوا بثلث الجيش قبل وقوع المعركة بقليل، قائلين (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم).

وطريقة المنافقين هذه في تقديم المعلومات الخاطئة، وتضليل الرأي العام، لنشر الإشاعات الكاذبة، وإثارة الرعب والخوف والقلق في أوساط المجتمع، وذلك للإضرار بوحدة المسلمين، وتماسك المجتمع الإسلامي، ولذلك استطاعوا إضعاف الجيش الإسلامي لما رجع بعض المسلمين مع المنافقين اغترارا بأساليبهم الإعلامية الفاسدة.

وأما محاولة إسقاط القيادة الإسلامية، فنكتفي بذكر هذا النموذج، فقد خرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك قلة من المنافقين وحاولوا اغتيال النبي ﷺ فعصمه الله منهم وهم خمسة عشر رجلا تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا، فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة[1] فلا يأخذها أحد.

فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط وجوه الرواحل. فقال رسول الله ﷺ لحذيفة (قد، قد) حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل، ورجع عمار. فقال (ياعمار، هل عرفت القوم؟) فقال: قد عرفت عامة الرواح، والقوم متلثمون، قال: (هل تدري ما أرادوا؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه) فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وقد أنزل الله في هؤلاء قوله ﴿**وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ (التوبة: ٧٤).

ومثل هذه المحاولات من المنافقين إنما استفادوها من أفعال اليهود، الذين يوالونهم ويسعون في نصرتهم ولا شك أن استهداف قيادة المجتمع فيه دلالة على قوة كيد المنافقين ومكرهم ولجوئهم في النهاية إلى مثل هذه الوسائل التي حاولوا أن يتخلصوا بها من رسول الله ﷺ، وهي من آخر محاولاتهم التي باءت بالفشل.

وأما بناء مسجد الضرار فقد بنوه للإضرار بالوحدة الإسلامية، وقد خطط المنافقون لهم مع الراهب أبي عامر الذي رفض الإسلام وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، ووعده، ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول

(١) العقبة طريق في الجبل وعر.

الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه، وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم، فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقرير فعلهم وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: (إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله).

فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم، أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ (التوبة: ١٠٨)، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: رأيت الدخان من مسجد الضرار حين انهار)[1].

وبهذا فشلت جهود المنافقين في تفكيك الوحدة الإسلامية، و هذه الوحدة ليست خاصة بالجيل القدوة في عهد النبي ﷺ بل هي وحدة للأمة المسلمة في الأرض كلها، وتشمل الزمان، كما شملت المكان، منهجها واحد، وهو الإسلام، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (آل عمران: ١٩).

(١) رواه الحاكم (٧٨٦٣) وصحح ووافقه الذهبي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وأتباعه ليس لهم إلا اسم واحد، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨)، والجزاء والمصير واحد، لعموم حديث (لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة) ولذلك بقيت هذه الوحدة على مر العصور تجمع الصادقين من أهل الإسلام، وجاءت الرسالة الخاتمة تؤكد هذه الوحدة فقال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢)، وقال الرسول ﷺ (نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد)[1]، أي القدر المشترك بين رسالات الأنبياء هو عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا جاءت رسالات الأنبياء بالمحكمات التي أشرنا إليها سابقاً، وما وقع من اختلاف في بعض فروع الأحكام من تشديد أو ترخيص، وكونها خاصة بقوم وزمان أو عامة للناس كافة إلى قيام الساعة كالرسالة الخاتمة فهذا الاختلاف لا يضر بهذه الوحدة قال الله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، وهذه الوحدة للأمة المسلمة على مر العصور هي التي أغاظت الأعداء، وكبرت عليهم، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾ (الشورى)، وسعى المنافقون في كل زمان إلى تقويض هذه الوحدة والقضاء عليها، ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

(١) صحيح البخاري مع الفتح، أحاديث الأنبياء، (٦/ ٤٧٨) ومعنى أولاد علات أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتى. وهذا إشارة إلى أن الدين واحد وإن اختلفت بعض الشرائع الجزئية في رسائل الأنبياء.

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، و قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، وبقيت والحمد لله هذه الأمة بمبادئها وعلمائها ورموزها ومساجدها وقبلتها الواحدة، والمنافقون لا يزالون في ريبهم يترددون، ويستهدفون هذه الوحدة الإسلامية، ولكن أهل الصدق لايزالون أيضا يقاومونهم، ويسعون لإفشال مخططاتهم، وإذا استطاع المسلمون اليوم أن يكونوا يدا واحدة في مواجهة فتن المنافقين، مقتدين بالجيل القدوة، جيل الصحابة، رضوان الله عليهم، فإنهم إن شاء الله منصورون وسيكون النجاح حليفهم في إبطال مشاريع النفاق وخططه، وهذا ما سنبينه في الفصل الثاني بمشيئة الله وتوفيقه وإعانته.

الفصل الثاني
كيفية التعامل معهم

المبحث الأول: حكمهم في الظاهر والفرق بينهم وبين الكفار:

المبحث الثاني: الصبر عليهم، وكشف شبههم والسعي لهدايتهم:

المبحث الثالث: كشف خططهم وإبطال مشاريعهم:

أبيض

الفصل الثاني
كيفية التعامل معهم

في هذا الفصل نبين كيف كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتعامل مع حركة المنافقين في المدينة من خلال محاور متعددة، منها:

تعامله معهم ببيان الحق لهم وطلب هدايتهم لعلهم يهتدون به ليكونوا لبنة بناء في المجتمع ويكفوا عن معارضتهم وفتنتهم للمسلمين.

بيان صبره وحلمه عليه الصلاة والسلام وانتظار رجوعهم وقبول توبة التائب منهم.

بيان النصوص الدالة على موقف المجتمع منهم وكيف كان المسلمون يتعاملون مع علمهم بكفرهم وظلمهم وبغيهم.

وببيان هذه الأمور يتحدد لنا كيف كان النبي ﷺ يتعامل معهم حسب الظاهر في الكف عن قتلهم، وملاحظة المصالح والمفاسد والموازنة بينها مع العمل على كف شرهم وكسر شوكتهم وكشف مخطّطَاتهم، ومن خلال هذا الفصل أيضاً سيظهر لنا أثر البيان القرآنيّ في توعية المسلمين تجاه هذا الخطر حتى استطاعوا أن يدركوا صفات المنافقين، وأن يشاركوا، في كف شرهم، وكسر شوكتهم.

ومن ذلك كثرة الآيات القرآنية التي كشفت عن أحوال المنافقين في الداخل، وكشف خططهم مع اليهود ومشركي العرب في الخارج، كما كشفت مشاريعهم الإفسادية وذلك من خلال التنبيه على ألفاظهم وتصرفاتهم التي تصدر عنهم على طول الفترة في العهد المدني.

إن المتأمل في السيرة يجد حركة المنافقين متغلغلة في المجتمع الإسلامي، بين أفراده وفي سوقهم، وفي سلمهم، وحربهم وأمورهم الاجتماعية وفي المسجد، وفي بعض بيوت المسلمين التي كانوا يقطنون فيها، وفي منتدياتهم وفي حضور التجمعات العامة ويشمل ذلك جميع الأوقات والأحوال في الليل والنهار، والسر

والعلانية، وفي حالة الانفراد ببعضهم، وفي حالة الاجتماع بغيرهم وفي سفرهم وحضرهم، وهكذا، كانوا في داخل أحداث المجتمع بأفراده وجماعته، وشعبه ودولته.

ولهذا كشف القرآن عن خطر تحركاتهم وامتلأت السيرة ببيان موقف المسلمين المتميز لدرء فتنتهم سواء أكان ذلك بتصرف خاص من عموم المسلمين، أو من توجيه من ولي أمر، وقد تربى أفراد المجتمع على التوازن في التعامل معهم بحكمة وحذر، وبذل الجهد لإيقاف شرهم وفتنتهم والقضاء عليهم.

وهنا نقف أمام السيرة العطرة للجيل الأول متأملين الدروس والعبر ومتابعين الجهود الكبيرة في أهم المواقف التي بذلها المجتمع عامة وعلماء وولاة أمر لكشف هذا الخطر من خلال متابعة دقيقة وتدرج وحكمة وتنويع في الأساليب، حتى حاصر المجتمع شرورهم وكسر شوكتهم وأول ما نبدأ في هذا الفصل في بيان حكمهم والفرق بينهم وبين الكفار والحكمة في ذلك.

المبحث الأول
حكمهم في الظاهر والفرق بينهم وبين الكفار

من خلال النماذج السابقة لأعمال المنافقين، يمكن أن نستنبط أهم ما يميز حركتهم وطبيعتهم، حيث بينا دخولهم في جميع مؤسسات المجتمع، وحضورهم في جميع أحداثهم المؤثرة، قاصدين توجيهها وجهة غير إسلامية، وهم في كل ذلك متلبسون بالإسلام ومتسترون به، وهذا الفارق الرئيس بينهم وبين الكفار، فالمنافقون في داخل المجتمع ومع حركتهم اليومية وأحداثه المهمة والكفار من خارجه منفصلون عنه،ونشير هنا إلى أهم الفروق بين الكفار والمنافقين مع أنهم في الكفر سواء:

- المنافقون في داخل المجتمع مع المسلمين متداخلون معه مجتمعا واسما، والكفار مباينون عن المسلمين مجتمعا واسما.

- المنافقين يخططون من الداخل ومتعاونون مع الأعداء خارج المجتمع، والكفار يخططون من الخارج ومتعاونون مع أنصارهم المنافقون داخل المجتمع.

- المنافقون حاضرون في المجتمع مشاركون للأحداث المهمة بخلاف الكفار

- جهود المنافقين الفكرية والعملية التخريبية لمحكمات الشريعة تحت ستارة الكيد والمكر والخديعة، وجهود الكفار حربية ومكشوفة بالجملة.

- جهود المنافقين مستمرة تشمل الزمان والمكان بين المسلمين وجهود الكفار الحربيين مؤقتة بزمان ومكان[1].

- المنافقون يكثرون الاعتذارات والتأويلات، وذلك ليستروا إفسادهم بخلاف الكفار.

- الكفار يحاربون تارة ويسالمون تارات ويحايدون أخرى وهذا مشاهد من خلال الواقع بخلاف المنافقين لا ينفك شرهم إلا بتوبتهم ولا يحايدون

(١) يمكن استثناء بعض الحالات المعاصرة حيث استطاع الكفار أن يلبسوا لبوس المصلحة ويتغلغلوا بين المسلمين بمناهجهم ومذاهبهم الفكرية وخططهم عن طريق المنافقين أمثالهم، وهم متسترون جميعا بلبوس المكر والخديعة.

ولا يسالمون - ماداموا على النفاق - ولهذا كانوا أشد عذابا في الآخرة وأخطر شرا في الدنيا، وإنما قصدنا إبراز هذه الاستنباطات لبيان الفرق بين جهود المنافقين التخريبية وبين جهود الكفار وعداوتهم لنستطيع بعد ذلك الكلام عن أحكامهم، وبيان مقصد الشريعة في اختصاص المنافقين ببعض الأحكام.

ولقد نبه القرآن الكريم على هذه الطبيعة المزدوجة عند المنافقين كما في سورة البقرة، حيث جعل الناس ثلاثة أصناف، مؤمنين وكفارا ومنافقين، وذكرت الآيات صفات خاصة بالمنافقين، وفصلت في ذلك.

قال تعالى: ﴿**الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)**﴾ (البقرة).

وصفات المكر والخديعة والتلبيس هذه صارت من طبيعتهم وتكونت من خلالها نفسيتهم، واشتدت بسبب ذلك فتنتهم، من أجل ذلك كان عذابهم أشد من عذاب الكفار وأنكى قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ (النساء: ١٤٥)، وحديث القرآن هذا إنما هو على النفاق الأكبر الذي هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وأما المؤمن فإنه قد يقع منه الكذب

والخيانة والفجور وهذا ينقص إيمانه ولا يزيله كما هو عقيدة أهل السنة والجماعة، إذ إنّه يجتمع فيه إيمان ونفاق خلافا لأهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والمرجئة[1].

نشأ النفاق الأكبر في المدينة في قبائل الأنصار ولم ينشأ في المهاجرين، لأن من قبائل المدينة من لم يؤمن، ولما رأى عزة الإسلام وقوته أظهر الإسلام وكتم الكفر نفاقا، وكذلك فعل بعض أئمة الكفر من اليهود فقد أسلم بعضهم نفاقا كما سنبينه، وكان رأس المنافقين وزعيمهم، عبد الله بن أبي بن سلول[2].

وسبب نفاق المنافقين من العرب واليهود هو عداؤهم للنبي ﷺ بغياً وحسدا، ولهذا من أول صفاتهم كما ذكرنا سابقاً ادّعاء الإيمان كذباً وبغض الإسلام وأهله، وتكذيب الرسول والحيرة والشك والريب

وقد حذر القرآن من عقائدهم وخطرهم، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٨)، البقرة، وقوله سبحانه: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ (المنافقون: ٤)، وهذا التحذير منهم بخطورة أفعالهم وكثرة شرورهم مع تلبسهم بالإسلام وزعمهم الإصلاح، وهم من أكذب الخلق وأكثرهم فتنة للجهال وعوام المسلمين، ولا يزال القرآن يحذر ويكشف صفاتهم حتى تجلت الأمور للمسلمين بالتدريج، وجمعت الشريعة الإسلامية بين مقصدين، الأول: مراعاة الظاهر، والثاني: مراعاة الحقيقة والصفات المؤثرة في الواقع، وبملاحظة المقصد الأول أجرى النبي ﷺ أحكام الإسلام ظاهراً، وبملاحظة المقصد الثاني صرح القرآن بظاهرة النفاق باعتبار أنها كفر وشر وفساد في الدين، وأنها من أعظم التحديات التي تواجه المجتمع وقد تعامل النبي ﷺ معها والمسلمون بهذا المنهج القرآني وذلك للقضاء عليها وتوجيه طاقات المسلمين لمقاومتها بالطرق الشرعية، وحصل من ذلك أمور.

---

(١) انظر كتب أهل السنة، كتاب الإيمان لابن مندة، مجموع الفتاوى لابن تيمية الجزء السابع ٣٥٠ -٣٥٣.

(٢) السيرة النبوية ٣٨٦ فتح الباري ١٠/ ١٩٥.

الأول: اعتبار الظاهر، والالتزام بالأحكام المترتبة عليه، ومنها إعطاؤهم حكم الإسلام ظاهرا، وعدم تطبيق حكم الردة عليهم واستباحة أموالهم ودمائهم، وقد كانوا يتوارثون هم وورثتهم من المسلمين، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -، (إن المنافق يدخل في أحكام الإيمان الظاهرة في الدنيا)، ويجري عليهم اسم المسلمين في الدنيا بالاتفاق بين أهل العلم[1]، وسبب ذلك أنهم ينتمون إلى معسكر المسلمين في الظاهر، ويعتذرون من أفعالهم الكفرية.

الثاني: أصل التعامل معهم بأحكام الإسلام وقد استعمل معهم النبي ﷺ السياسة الشرعية من الرفق والصبر والتدرج في استصلاحهم والرغبة في توبتهم

الثالث: التحذير من كفرهم وشرهم وفتنتهم لأن نفاقهم يدخل في الكفر الأكبر ويتقوى بالكافرين، وينشر أسباب الكفر والشرك بين المسلمين، بالطرق الملتوية والتأويلات الفاسدة.

وقد جمع النبيُّ ﷺ بين هذه المقاصد، وسعى في جهادهم وإضعاف قوتهم ودرء فتنتهم عملاً بالتوجيهات القرآنية في هذا المجال، فبدأ بوعظهم والإعراض عنهم، قال الله تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ (النساء: ٦٣)، ثم حذر منهم كما قال الله تعالى:﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ (المنافقون: ٤)، ثم أخذ بكشف صفاتهم والإغلاظ عليهم، لما لم يتوبوا ويرجعوا قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (التوبة: ٧٣)، وقال: ﴿**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (التوبة: ٩٥).

ثم استمرت الآيات في كشف تلبيسهم ونفي الإيمان عنهم، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا**

(١) مجموع الفتاوى الكبرى ٧/ ١٤١.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ٩)، ثم أخذ القرآن في كشف تحاكمهم إلى غير الإسلام قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

إن اعتبار ظاهر المنافقين وإعطاءهم حكم الإسلام ظاهراً يناسب ما أتوا به من أعمال ظاهرة من الصلاة والزكاة والحج والجهاد وإن كانت زوراً ونفاقاً[1] ولهذا لم يعمل فيهم النبي ﷺ بعلمه الخاص ولا بغلبة ظنه[2].

وقد استمر القرآن في كشف خطرهم وتتبع مخططاتهم والقضاء عليها وفي ذلك مصلحة عظيمة لتحقيق مقصد الشارع الحكيم في المحافظة على ضروريات المجتمع الإسلامي وأهله من الانحرافات والضلالات والشرور والفتن التي كان يعمل بها المنافقون ليلاً ونهاراً.

وهذا هو المقصود من الأمر بجهادهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التحريم: ٩).

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند الإمام ابن جرير الطبري حيث نقل قول ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: جهادهم باليد واللسان، وعن ابن عباس قال: جهادهم باللسان، قال الضحاك: واغلظ عليهم بالكلام، وعن الحسن قال: بإقامة الحدود عليهم، قال ابن جرير - رحمه الله - وأولى هذه الأقوال بالصواب (جاهدهم باليد واللسان).

---

(١) الإيمان لابن تيمية ٢٧٦، مجموع الفتاوى الكبرى ٧/ ٣٥١.

(٢) الموافقات للشاطبي ٢/ ٤٦٧ وإعلام الموقعين لابن القيم ٤/ ٥٤٨.

فإن قال قائل (كيف تركهم مقيمين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم، قيل: القتال لمن أظهر الكفر وأقام على ذلك، ومن أنكر من المنافقين ما نُسب إليه وحلف أنه مؤمن فقد حصّن دمه وماله وجهاده باللسان)[1].

وقال الإمام النسفي عند تفسير هذه الآية المعنى: جاهد المنافقين بالحجة، واغلظ عليهم، كل من وقف وكل من ظهر فساد في عقيدته فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة[2] ما أمكن منها، يعني حسب المصلحة.

وقد نقل ابن كثير في تفسيره قول ابن جرير ثم قال: ولا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال[3] وهذا الجمع من ابن كثير حسن وقد أخذه عن شيخ الإسلام وسيأتي بيانه.

وقد ذكر أهل العلم أسباب عدم قتل المنافقين في عهده عليه الصلاة والسلام

فمنهم من قال: كف عن قتلهم ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه، وإنما يحكم بالشهادة والبينة المعتبرة، وهو قول مالك كما نقله عنه القرطبي[4] ومنهم من قال: تركهم للمصلحة وتأليف القلوب حتى لا تنفر عنه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن مفلح: (ويتوجه منه جواز القتل، وتركه لمعارض ويوافقه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (التحريم: ٩).

ونقل عن ابن حامد قوله: (فإن قيل: تركُه ﷺ إقامة الحدود على المنافقين لأي معنىً؟ قيل: ظاهر المذهب أنه فعل ذلك بأمر الله، غير أنه ما ترك بيانه، وقد كان تركه الحد لان فيهم منفعة وقوة للمسلمين)[5].

وقال شيخ الإسلام – رحمه الله – (ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ لعبد الله ابن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكرِه بنوع من

(١) جامع البيان ١٤/ ٣٥٨ – ٣٦٠.
(٢) تفسير النسفي ١/ ٦٩٤ الطبعة الأولى دار الكلم الطيب (بيروت).
(٣) تفسر القرآن العظيم ٤/ ١٥٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠٣.
(٥) الفروع ١٠/ ٢٤٩.

عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه)[1].

وقال – رحمه الله – (كان النبي ﷺ يمتنع من عقوبة المنافقين فإن فيهم من لم يكن يعرفه كما أخبر الله بذلك، والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه، ولقال الناس: إن محمداً يقتل أصحابه،فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الإسلام إذ لم يكن الذنب ظاهرا يشترك الناس في معرفته)[2].

وهذا المعنى متقرر في سنته ﷺ فقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) (وقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي)[3].

وبمثل ما قال شيخ الإسلام، قال الإمام الشاطبي: حيث اعتبر المنع من قتل أهل النفاق لما ورد في الأحاديث السابقة من باب سد الذرائع وتحقيق المصالح، ودفع المفاسد[4].

وقال شيخ الإسلام من بيان المصلحة في ترك عقوبتهم (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) وقوله عليه الصلاة والسلام في بيان سبب تركه لعقوبة رأس المنافقين (إذن ترعد له آنف كثيرة بيثرب).

(ولو قتلهم بما يعلمه من كفره لأوشك أن يظن الظانّ إنما قتلهم لأغراض وأحقاد،وإنما قصده الاستعانة بهم على المُلك كما قال (أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم) وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يُقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره)[5].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٣١.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٢٢.

(٣) انظر صحيح البخاري حديث ٣٥١٨، صحيح مسلم حديث ٤٩٠٧، وانظر بحثا مفصلا في ذلك في كتاب سياسة النبي ﷺ في تعامله مع المنافقين ص ١٢١ وما بعدها اعداد الأستاذ عبد العزيز بن حمد الداوود طبعة ابن الجوزي.

(٤) الموافقات للشاطبي ٤/ ١٩٥ –١٩٧ طبعة دار المعرفة.

(٥) الصارم المسلول ١/ ٣٥٨ طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر الحرس الوطني السعودي.

وبين شيخ الإسلام أن أكثر ما يتكلم به المنافقون من الكفر مما لم يثبت عليهم بالبينة بل كانوا يظهرون الإسلام، وتارة يُعرف نفاقهم بالكلمة يسمعها المؤمن فينقلها للرسول على الصلاة والسلام، فيحلفون بالله أنهم ما قالوا، وتارة تظهر منهم الكراهية لأحكام الله، وينزل فيهم القرآن ثم يعتذرون ولم يكن النبي ﷺ يقيم العقوبات بعلمه ولا بخبر الواحد، ولا بمجرد الوحي، ولا بالدلائل والشواهد، وإنما يقيم الحد بالبينة أو الإقرار[1].

ولهذا اختلف حال المنافقين عن حال المرتدين الصرحاء، ولم يعاملهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأحكام الكفار والمرتدين، وإنما كان له طريقة خاصة توازن بين المصالح والمفاسد كما بيننا في هذا البحث.

(١) الصارم المسلول ١/ ٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧.

المبحث الثاني
الصبر عليهم وكشف شبههم والسعي لهدايتهم

لقد استمر الرسول الكريم في أداء رسالته العظيمة وتلاوة القرآن الكريم على المنافقين ليكشف شبههم ويقيم الحجة عليه، ويدعوهم للتوبة، وقد حقق هذا العمل النبوي هداية بعضهم، كما بينا في الأمثلة السابقة، ومن المنافقين الذين تابوا، الجلاس بن سويد، فلما سمع قول الله تعالى: ﴿**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ (التوبة: ٧٤)، قال دعاني الله للتوبة يارسول الله، وأنا تائب ولهذا قال الله تعالى: ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ (التوبة: ٦٦)، فمنهم من رجع إلى الحق وأسلم وحسن إسلامه، وهذا من أثر المجادلة بالتي هي أحسن، وأثر قراءة القرآن عليهم في الصلوات وخاصة في المجامع التي يحضرونها مما ألجأ بعضهم للتوبة بعد أن كشف الله خفايا نفوسهم، و تصرفاتهم وقد كان لمشاركة الصحابة كباراً وصغاراً من خلال الحوادث الجزئية التي ذكرناها سابقا أثر كبير في هداية بعضهم

ومن الآيات التي كانت تكشف سرهم وخفاياهم الآيات في سورة المنافقون فقد كان النبي ﷺ يتلوها في المجامع الكبرى ويكررها، إضافة إلى ما كان يسمعه المنافقون من الآيات الخاصة بمواقفهم من الأحداث وخططهم تجاه الرسول ﷺ وأصحابه، وكثر في سورة التوبة ذكر أحوال المنافقين التي يعرفونها وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (التوبة: ٤٩)، وقوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ (التوبة: ٥٨)، وقوله: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾

(التوبة: ٦١)، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة: ٧٥).

وهذا البيان القرآني يساعد من يريد التوبة منهم، ومن بقي فيه بقية من خير، ويجعله يؤمن بالغيب لأنه يعلم أنه لم يطلع على سره إلا الله، وهذا القرآن يكشف أسراره.

ويتحقق مع ذلك المقصد، مقصد آخر وهو كشف مخططاتهم وفضح صفاتهم، واستمرار التحذير منهم حتى لا يغتر المسلمون بهم، وهو الطريق الأمثل لدرء فتنتهم وإبطال مشاريعهم وأفعالهم الإفسادية وتحذير المجتمع منها، إذ لو تجاهلها المسلمون وتعاملوا معها بضعف وخور وقبلوا الاعتذارات والتأويلات الفاسدة من المنافقين لأدى ذلك إلى إفساد المجتمع من الداخل،

ومن الفوائد التي ترتبت على تحقيق هذين المقصدين، ما يلي:

- التدرج بالمجتمع وخاصة قرارات المنافقين حتى انكشفت لهم الحقائق من خلال الوقائع والممارسات وهذا يساعده على اتخاذ موقف سليم من المنافقين كما صنع الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، حيث منع أباه من الدخول إلى المدينة لما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل، يقصد نفسه بالأعز ويقصد النبي ﷺ بالأذل - حاشاه عليه الصلاة والسلام - فلما علم ابنه بمقالته منعه من الدخول، حتى يأذن النبي ﷺ له، ويعلم من هو الأعز ومن هو الأذل

- درء الفتنة عن المسلمين والاختلاف في شأن المنافقين لو أن النبي ﷺ نفذ فيهم الأحكام، والناس لا يعرفون حقيقتهم، ولم يطلعوا على أفعالهم الإفسادية

- استمرار التربية والتعليم والتوعية، من خلال الأحداث المستمرة وبناء المنهج العقدي في الولاء والبراء،ذلك لأن التربية بالأحداث من الطرق الناجحة في بناء الشخصية الإسلامية، وبناء المجتمع، وهذه الأحداث بدأت من أول نشأة الدولة الإسلامية في المدينة إلى وفاته عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على حسن التخطيط وبعد النظر، في مجال التربية والتوعية الإسلامية، وبهذا اجتمعت قدرات

أفراد المجتمع وتكاملت، وأدت إلى حصار حركة المنافقين وإضعافها وتنحيتها من الطريق.

– وهذا يدلنا على أن بناء المجتمع هو مسؤولية أفراد المؤمنين الواعيين بهذه المشكلة الكبرى والعاملين على حماية مجتمعهم وهم الذين يستطيعون الوقوف في وجه أعدائهم في الداخل والخارج

إن الإسلام والإيمان عقيدة وجهاد، ووحدة وقوة تسعى لتمكين الحق بكل الوسائل المشروعة، ولحماية وتحصين المجتمع الإسلامي من خلال عمل أفراده وطاقاتهم والشعور بمسؤوليتهم تجاه الفتن التي تهدد مجتمعهم،

– ومن الحكم في ذلك أيضا تعليم المسلمين وتربيتهم على الحيطة والحذر والعمل على تحقيق أهدافهم من خلال السياسة الشرعية وتكامل أعمالهم، وملاحظة المراحل التي يمرون بها، حتى لو اقتضى الأمر في بعض الأحيان، الحياد لأجل المصلحة، وذلك في مثل قول الله تعالى في شأن الكفار والمنافقين ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا**﴾ (النساء: ٩٠)، كما وجه القرآن الكريم إلى اتخاذ موقف واحد تجاه المنافقين حيث قال الله تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا**﴾ (النساء: ٨٨)، وفي كل ذلك فوائد تربوية ومنهجية في بناء الفرد والمجتمع.

أبيض

المبحث الثالث
كشف خططهم وإبطال مشاريعهم

المتتبع لحركة المنافقين وخططهم يلاحظ فيها كثرة الوقائع، وتنوع الخطط، والاستفادة من جميع الفرص المتاحة، واستغلالها وتشكيلها وتوجيهها لمصلحته، ولهذا كان الهدي النبوي يواجه كل حالة بما يناسبها، ويتابع كل حدث في حينه، ولهذا نلمس في السيرة النبوية تنوع المعالجة مع الحكمة والتدرج وتحقيق المصلحة الشرعية.

فخطة المواجهة في السيرة النبوية بدأت أولاً بالاعتراف بالمشكلة الكبرى وتحديد خطرها وحجمها الحقيقي دون تهاون أو تضخيم ودون تسويف أو تأجيل، أو تخوف، وكان عنوان هذه الخطة (النفاق الأكبر، خطر أكبر والقضاء عليه واجب على الجميع).

ولذلك جاء القرآن الكريم لتحديد معالم هذه الخطة، فآيات تحدد معنى النفاق وتبين خطره وأخرى تفصل في صفات المنافقين وتكشف تصرفاتهم وكيدهم ومخالفاتهم العقدية، وآيات تدعو إلى توعية المؤمنين وتأمرهم باتخاذ موقف واحد وترك الاختلاف في المنافقين، وآيات توجه المسلمين وتحثهم على البعد عن المشاركة في مشاريع المنافقين وإن تلبست بالدين، ثم توجيههم إلى القضاء عليها وإبطالها.

وهكذا تعامل الرسول ﷺ مع حركة المنافقين، والمسلمون معه يشعرون بمسئوليتهم وذلك وفق خطة واضحة قد ربى عليها أفراد المجتمع، وطلب منهم أن يأخذوا حذرهم وأن يستعدوا للعمل المستمر للقضاء على حركة المنافقين .

وقد سبق البيان بمنهج القرآن بالتصريح بحركة النفاق وخطرها والتحذير منها، وتكرار ذلك في كل مناسبة وأحداث تخص المنافقين، وذلك للاستمرار في توعية المجتمع وإيقاضه لمتابعة كشف خطط المنافقين ومقالاتهم السرية في مجالسهم الخاصة والعامة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى منوهاً في هذا المعنى، (يكاد القرآن أن يكون كله في شأنهم)[1] أي في شأن المنافقين.

وما ذكره ابن القيم – رحمه الله – وإن كان فيه نوع مبالغة لكن مراده تقرير المعنى الخطير وهو شدة فتنتهم على المجتمع الإسلامي والمتأمل في السيرة وأسباب نزول القرآن يعلم اهتمام المنهج القرآني وشمولية معالجة هذه المشكلة وكثرة الآيات التي نزلت في ذلك، ولعل هذا المعنى هو الذي يقصده ابن القيم – رحمه الله –، وقد ورد ذكر هذه المشكلة وعلاجها وبيان خطرها في سبع عشرة سورة مدنية.

وهذا يدل على أن تصرفات المنافقين وخططهم كانت تحت المجهر بل وكذلك مقالاتهم العقدية الخفية، وفلتات ألسنتهم، وتقلب نفسياتهم.

وأما علاقاتهم مع اليهود، ومسارعتهم في خدمة الكفار وموقفهم من قضايا المسلمين، ومن الأحداث المهمة التي تمر في المجتمع الإسلامي كل ذلك كان تحت الرصد والكشف من القرآن الكريم والمتابعة العملية من الرسول الكريم ﷺ وأصحابه، وذلك كله في جميع المراحل بدون استثناء ولا انقطاع، في معركة بدر، وبعد معركة بدر وفي معركة أحد، وقبل معركة أحد وفي علاقات المنافقين مع يهود بني النضير، وإظهارهم مودة الكافرين، وفي حركتهم اليومية في التحاكم إلى غير شرائع الإسلام.

إن القرآن الكريم والسور الطوال وفي كثير من السور حتى (المفصل) يتابع كشفهم وفضحهم ويتلى في المساجد والبيوت ومجامع الناس، ويستمر البيان، وتستمر التوعية في بقية الأحداث، في غزوة الأحزاب وبعدها، وفي تفاصيل أحداثها، وفي غزوة تبوك وبعدها، والنبي عليه الصلاة والسلام يشرف على هذه المعركة بنفسه ويوجه الصحابة رضوان الله عليهم، ليبذلوا جهدهم، ويعملوا على

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٥٨.

محاصرة حركة النفاق، وذلك لتحقيق الهدف الكبير وهو القضاء عليها، وجهود المسلمين تتكامل بين الراعي والرعية وهكذا اجتمعت طاقات المجتمع الفردية والجماعية بإشراف ودعم الولاة من أولي الأمر علماء وأمراء، وقيادات مجتمعية، ومشاركين من جميع التخصصات لتحقيق موقف واحد في مواجهة هذه المعركة، حفاظاً على المحكمات وبُعداً عن الاختلاف أمام معركة النفاق والمنافقين.

وقد استمرت هذه الجهود طيلة الفترة المدنية عشر سنوات، بلا فتور ولا انقطاع، وهذا الثبات والاستمرار في تحقيق هذا الهدف كان عن حسن تخطيط وقوة في العقيدة والعمل وتكامل في الجهود بين المسلمين، لا يشغلهم هَمٌّ عن هَمٍّ،ولا عدوٌّ عن عدوٍّ، مع كثرة الأعداء وطول فترة المعركة، وتنوع أساليب المنافقين وشدة مكرهم وكيدهم، وهذا يعلمنا أن المسلمين لن ينجحوا في أي عصر من العصور إلا إذا أحسنوا الاقتداء بهذا الجيل واستفادوا من تلك السيرة العطرة وانتفعوا بالمنهج القرآني، واجتنبوا التأثر بالمناهج البشرية الأرضية، وسياساتها القاصرة.

إن توحيد جهود المسلمين وفق المنهج القرآني والتوجيهات النبوية، لا بد منه للسلامة من الفشل في هذه المعركة ولهذا لّما همَّت طائفتان من المسلمين أن تفشلا في مواجهة المنافقين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[1] (آل عمران: ١٢٢)، وهذه الآية نزلت في بني سلمة وبني حارثة فقد هموا بالرجوع عن المشاركة في معركة أحد بسبب تأثرهم بموقف المنافقين، حين رجعوا بثلث الجيش، وهم في الطريق، فاغتر بهم بعض المؤمنين وحسَّنوا الظن بهم، ورجعوا معهم، ولكنَّ هاتين الطائفتين سلمتا من الفشل، وهذا يدل على أن بعض المسلمين قد ينخدع بخيانات المنافقين، ويشارك معهم وهو لا يعلم مقصدهم في خلخلة الصف المسلم.

(١) صحيح البخاري مع الفتح.

وقد سبق بيان أن المنافقين سعوا إلى تفكيك الوحدة الإسلامية وإثارة النعرات وإحياء أمور الجاهلية، وقد أبطل النبي ﷺ ذلك، وأزال آثاره، وجعل مكان ذلك الوحدة والتعاون بين المسلمين، وتذكيرهم بما أنعم الله به عليهم من الالتزام بالإسلام، وما نالهم بسبب ذلك من البركة والخير الكثير.

وأما مشروعهم في بناء مسجد الضرار فقد بينا كذلك موقف النبي ﷺ إذ أمر بهدمه.

ومن سياسة النبي ﷺ في محاصرة خطط المنافقين توجيهه للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - برصد أسماء المنافقين الذين حاولوا اغتيال النبي ﷺ في غزوة تبوك، كما ذكرنا سابقاً وكان عددهم خمسة عشر رجلاً تعاهدوا على اغتياله وهو صاعد في العقبة ليس معه من الصحابة إلا رجلان، أذن لهم النبي ﷺ بصعود العقبة وهو راجع من غزوة تبوك، ومنع الباقين، ولكن هؤلاء المنافقين رأوا أن هذه فرصة سانحة لاغتيال النبي ﷺ وترديته من العقبة دون أن يشعر به أحد.

وتحديد هذه الأسماء وكشف نشاطاتها المشبوهة إنما هو للحذر منهم فيما بعد وإبعادهم عن إدارة مصالح المسلمين أو المشاركة فيها، ومثل ذلك تتبع تصرفات أفراد المنافقين، القولية والعملية وتحذير المسلمين منها كما سبق في أمثلة كثيرة.

وقد كان المقصد من ذلك كشف مخططاتهم الإفسادية وإبطال مشاريعهم وإضعاف حركتهم دون أن تكون هناك مواجهة مكشوفة معهم، وذلك لتحقيق مصالح كثيرة منها:

- مصلحة تأليف المسلمين والحفاظ على وحدتهم والحذر من الدخول في مواجهة قتالية مع المنافقين.

- ترك قتالهم حتى لا يتحدث الناس والأعراب خارج المدينة أن محمدا يقتل أصحابه، لأن الناس لا يعرفون حقيقة ما يصنعه المنافقون، لأنهم كانوا يتلونون ويغطون فسادهم، وكفرهم وتخريبهم بالأعذار والتأويلات الفاسدة، والذي

في الخارج لا يدرك الحقيقة، بل إن المؤمنين في الداخل قد انخدعوا في اعتذارات المنافقين، وهذا المعنى نبه عليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما قال له عمر - رضي الله عنه - في شأن عبد الله بن أبي: لما قال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ (دعه، لا يتحدث الناس إن محمدا يقتل أصحابه)[1].

- اكتشاف الأسماء المؤثرة من داخل المدينة وخارجها بالتدريج، وهذا فعلا ما حصل، في المجتمع الإسلامي، فقد أصبح الناس يعرفون رأس المنافقين، عبد الله بن سلول - مع أن النبي ﷺ لم يصرح باسمه - حيث كشفه المجتمع من خلال حركاته وكيده ونشاطه، وهذا يدل على حيطة المسلمين وحضورهم في وسط تلك الأحداث التي يستغلها المنافقون، ويدل على تمتعهم بالعلم والفقه والوعي، وكذلك عرف المسلمون كبار المنافقين من اليهود ومن أبرزهم زيد بن رفاعة، وهو من منافقي اليهود، كان من عظماء بني قينقاع وأسلم ظاهراً، حتى يتم له الدخول بين المسلمين والتخطيط مع المنافقين، دون أن يشعر به أحد.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة، تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله ﷺ (بعثت هذه الريح لموت منافق) فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من منافقي المدينة قد مات، وهو زيد بن رفاعة، من بني قينقاع[2]، ولم يذكر القرآن أسماءهم، وأما النبي ﷺ فكذلك لم يذكر أسماء كبرائهم، وما احتاجوا فيه إلى ذكر أسماء بعضهم فقد جعله سراً عند الصحابي الجليل حذيفة - رضي الله عنه -، وذلك لتفادي شرورهم وفتنتهم والحذر من دخولهم في ولايات وأعمال المسلمين[3]، وأما ترك التصريح

(١) رواه البخاري واللفظ له حديث رقم ٣٥١٨.

(٢) رواه مسلم ٢٧٨٢.

(٣) أشار إلى هذا الأستاذ منذر الأسعد في كتابه براءة الصحابة من النفاق ٧٦، وانظر كتاب كيف عاملهم للشيخ / محمد المنجد ٧٣٧.

ببقية أسماءهم فذلك إنما كان للمصلحة واكتفى القرآن بذكر صفاتهم والتحذير منها، لأن الذنب يرتبط بالأوصاف وجوداً وعدماً وهو الأهم، فالوصف أعم وأنسب، وكذلك الأصل نقد القول والفعل لا الذات، وذلك حتى يتبين للناس خطر الصفات الخبيثة ويحذرون، ويُحذّرون منها[1].

وبهذه السياسة الحكيمة، المبنية على مقاصد هذه الشريعة، استطاع الجيل الأول أن يواجه حركة المنافقين، ويقضي عليها، ويحمي المجتمع من شرورهم وفتنتهم، ويحافظ على محكمات الشريعة من التبديل والتغيير، وعلى وحدة المجتمع من التفكيك والتقويض، وهكذا استمر المسلمون في بناء مجتمعهم الإسلامي على كيان وثيق وعقيدة سليمة وصراط مستقيم.

تم البحث وآخر دعوانا أن الحمد لله

(١) انظر سياسة النبي ﷺ في تعامله مع المنافقين ١٢٠ طبعة ابن الجوزي.